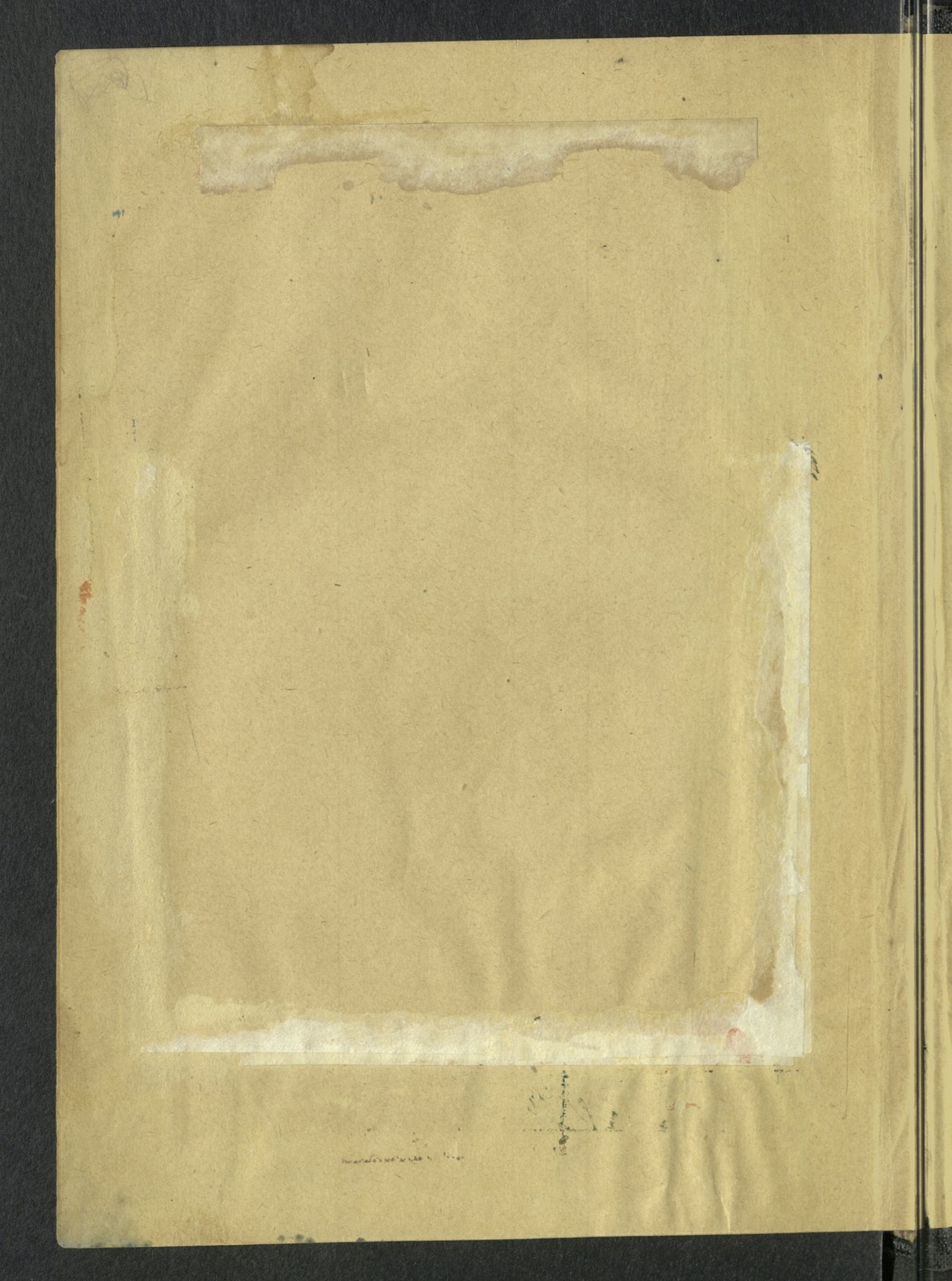
قطب

السلام العالمي والاسلامي



سيد قطب

السلام العالمي والإسلام

الناشر: مكتبة وهبة
١٤ شارع ابراهيم باشا بعابدين

غرة المحرم سنة ١٣٧١
٢ من أكتوبر ١٩٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

[الأنفال ٥٥ — ٦١]

العقيدة والحياة

عمر الفرد الفانى محدود ، وأيامه على الأرض معدودة ؛ وهو — بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذى يعيش فيه — ذرة تائهة لا مستقر لها ولا قيمة ؛ وعمره بالقياس إلى الزمن الهائل من الأزل إلى الأبد ومضة برق أو غمضة عين .

ولكن هذا الفرد الفانى . هذه الذرة التائهة . هذا اللقى الضائع . . يملك فى لحظة أن يتصل بقوة الأزل والأبد . أن يمتد طولا وعرضاً فى ذلك الكون الهائل . أن يرتبط به فى أعماقه وأمشاجه بوشائج من القربى لا تنفصم . أن يشعر أنه من تلك القوى الهائلة وإليها . أنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشىء أحداثا ضخمة ، وأن يؤثر فى كل شىء ويتأثر . . يملك أن يحس الوجود فى الماضى ، والاستقرار فى الحاضر ، والامتداد فى الآتى . يملك أن يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التى لا تنضب ولا تنحسر ولا تضعف . وإنه لقادر إذن على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى ؛ فما هو باللقى الضائع ، ولا بالفرد العاجز ، وهو يستند إلى قوة الأزل والأبد وإلى ما بينه وبينها من وشائج .

تلك وظيفة العقيدة الدينية ، وذلك أثرها فى النفس والحياة . ذلك سر قوة العقيدة فى النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التى صنعتها العقيدة فى الأرض وما تزال فى كل يوم تصنعها . الخوارق التى تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ؛ وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر

الفانى المحدود ، فى سبيل الحياة الكبرى التى لا تفنى ؛ وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان ، وقوى المال ، وقوى الحديد والنار .. فإذا هى كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة فى روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفانى المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ؛ ولكنها القوة الكبرى الهائلة التى استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذى لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف .

وما تملك عقيدة أخرى — غير العقيدة الدينية — أن تصل الكائن الفانى بقوة الأزل والأبد ؛ وأن تمنح الفرد الضعيف ذلك العون والسند ؛ وأن تصغر فى عينه قوى الجاه والمال ، وقوى المركز والسلطان ، وقوى الحديد والنار ؛ وأن تصبره على الحرمان والأذى ؛ وتقدره على الصبر والكفاح ؛ وتدفعه إلى الموت الذى يخلق الحياة ، والفناء الذى يمنح الخلود ، والتضحية التى تورث النصر .

ومن ثم قيمتها الكبرى فى حياة الأفراد وحياة الجماعات سواء .

ومن ثم ذلك الإصرار الذى نصرّه على مواجهة مشكلاتنا الاجتماعية ، ومشكلاتنا القومية ، ومشكلاتنا العالمية ، بحلول تنبع من عقيدتنا الدينية .

إن هذه العقيدة قوة هائلة فى أيدينا ، وقوة عميقة فى كياننا . قوة لا يتخلى عنها صاحبها فى زحمة الصراع إلا أن يكون به حمق أو سفه . ونحن نواجه صراعا ضخما فى الداخل وفى الخارج . نواجه قوى هائلة متكتلة أكبر من طاقتنا المجردة . فإذا كانت عقيدتنا تسعفنا فى هذا الصراع الضخم بقوى حقيقية واقعة ، وبحلول عملية واقعة كذلك . . فأى ضمير يملك أن يفرط فى تلك القوى ، وأن يتخلى عن هذه الحلول ، لمجرد أنها نابعة من تلك العقيدة ؟!

إن بعض النظم الأخرى قد تقدم لنا بعض الحلول لبعض المشكلات فى بعض الأحيان . . ولكن قيمة العقيدة التى ندعو إليها ليست مجرد تقديم الحلول الوقتية للمشكلات الوقتية . إنما قيمتها أنها تقدم هذه الحلول ، وتقدم معها القوة الضامنة لتحقيقها وحمايتها . قوة الدافع الفطرى العميق للعقيدة الدينية . ذلك الدافع الذى لا تملأ فراغه فى النفس الإنسانية فكرة فلسفية ، ولا مذهب اجتماعى ، ولا نظرية اقتصادية . ذلك أنه أعمق فى النفس البشرية من مستوى الفكر والمذاهب والنظريات . إنه جوعة فطرية لا يسدها إلا الإيمان . جوعة كجوعة الجسد إلى الطعام والشراب وسائر الضرورات .

وكم يخطىء الذين يخدعهم خمود هذا الدافع فترة أو تواريه ؛ فيحسبونه قد مات ؛ ويحسبون أنهم يستطيعون ملء فراغه فى نفوس الأفراد والجماعات ، بمذاهب فلسفية ، أو نظريات اقتصادية ، أو أفكار اجتماعية .

وسرعان ما يتبين لهم خطؤهم حينما تنتفض العقيدة الخامدة من حيث لا يحتسبون ، فتأتى بالخوارق فى حياة الفرد ، وفى حياة الجماعة . . هذه العقيدة التى كانت منذ لحظة خامدة هامدة ، لا توحى بأمل ، ولا ينبعث منها رجاء . وإن هى إلا فترة كمون يحسبها الجاهلون موتا ؛ ويدرك العارفون أنها طور من أطوار النفس البشرية ، المليئة بالمسارب والمداخل ، وبالمنعرجات والدروب !

تلك الخوارق التى تأتى بها العقيدة الدينية فى حياة الأفراد وفى حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية

تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخافية ؛ وتثبّت روحه بالثقة والطمأنينة ؛ وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين فى النصر ، وقوة الثقة فى الله . وهى تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ؛ وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمّع طاقاته وقواه كلها وتدفعها فى اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها فى اتجاه واحد ، تمضى إليه مستنيرة الهدف ، فى قوة وفى ثقة وفى يقين .

والشخصية الإنسانية السوية وحدة متماسكة ؛ فهى فى حاجة إلى عقيدة موحدة تصدر عنها فى كل اتجاه ؛ وتستلهمها فى الشعور والسلوك ؛ وتستهديها فى مواجهة الكون والحياة ؛ وترجع إليها فى كل صغيرة وكبيرة .

وفضل هذه العقيدة فى حياة كل إنسان ، أن تكون نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياته ونشاطه ؛ فلا تتمزق شخصيته وتتبعثر ، ولا يدركها القلق والحيرة والاضطراب . وكلما قويت هذه النقطة واشتدت صلاتها بالخيوط المنبثة هنا وهنالك فى حياة الفرد ونشاطه كانت شخصيته أقوى ، لأنها أكثر تجمعا ؛ وكانت خطواته أهدى لأنها أوحد طريقا .

والعقيدة التى تتسع لكل ألوان النشاط الإنسانى هى عقيدة أفضل وأكمل من العقيدة التى تنظم بعض ألوان النشاط وتقصر عن بعضها . وكلما ثاب الفرد فى نشاطه كله إلى عقيدة واحدة كان ذلك أفضل له وأيسر من أن يرجع فى ألوان نشاطه إلى عقائد متفرقة . إن وحدة العقيدة حينئذ تحقق وحدة الشخصية ، دون أن تجور على ألوان نشاطها المتعددة ؛ ودون أن تضيّق مجال

النشاط أو تحده ؛ ودون أن تمزقها طرائق قددا ، وتوقع بينها الاضطراب أبدا .

والعقيدة الروحية التى لا رأى لها فى السلوك الاجتماعى والعلاقات الاقتصادية والنظم العالمية . كالنظرية الاجتماعية التى لا رأى لها فى الاعتقاد الروحى والتنظيم الدولى . كالفكرة الفنية التى لا علاقة لها بالسلوك أو الاعتقاد أو النظام . . كلها محاولات ناقصة ، لا تملك أن تنظم للإنسانية حياتها كاملة ؛ ولا أن تحقق للشخصية الإنسانية التماسك والاتساق .

إن الفرد كالجماعة فى حاجة ملحة إلى عقيدة تتسع لكل ألوان النشاط الحية ، وتهيمن على اتجاهاتها جميعا ، لتدفع بها كلها فى طريق الإنشاء والبناء والنماء . والفترات التى يهتدى فيها الفرد أو تهتدى فيها الجماعة إلى مثل هذه العقيدة ، وتستجيب لها استجابة كاملة ، وتحققها فى واقع الحياة . . هى الفترات التى تحقق فيها البشرية ما يبدو كأنه معجزات ، وما يصعب تفسيره إلا على ضوء الوحدة التى تجمّع الطاقة ، وتصونها عن التبدد والتمزق ، وتدفع بها كلها فى اتجاه واحد ، كالتيار الجارف ، وكالسيل الجبار .

والعقيدة الإسلامية هى المثال الواحد الذى عرفته الإنسانية فى تاريخها الطويل فى هذا المجال . إنها العقيدة التى تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان فى كل حقول الحياة ؛ فلا تقصر مهمتها على حقل دون حقل ، ولا على اتجاه دون اتجاه .

إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فما لقيصر ، وقيصر ذاته ، فى العقيدة الإسلامية كله لله . وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه !

وإنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده ؛ أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه ؛ أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه . وإنها لا تتولاه فردا وتهمله جماعة ؛ ولا تتولاه فى حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته .

إنها الفكرة الكاملة الشاملة التي تمتد خيوطها فى الحياة الإنسانية امتداد الشرايين فى الكائن الحى وامتداد الأعصاب .

* * *

ونحن فى مصر — وفى العالم الإسلامى كله — نواجه ألوانا شتى من المشكلات والعوائق . نواجهها فى الداخل فى صورة مشكلات اجتماعية واقتصادية وأخلاقية ؛ ونواجهها فى الخارج فى صورة مشكلات قومية ودولية ؛ ولكننا نواجهها ونحن لا نجد أنفسنا ، ولا نعرف رصيدنا من الطاقة ، ولا ندرك لنا هدفا ولا طريقا . نواجهها أحوج ما نكون إلى عقيدة واحدة تجمّع قوانا ، وإلى راية واحدة نقف فى ظلها صفا ، وإلى فكره واحدة نواجه بها الحياة ونواجه بها المشكلات ، ونواجه بها تلك القوى التى تناصبنا العداء ، فى الداخل وفى الخارج سواء .

ولقد كنا نتجنى على عقيدتنا الضخمة ، ونظن بها عن جهالة أو عن غرض ، أنها لا تسعفنا بالحلول العملية المحدودة لمواجهة الحياة العصرية ومشكلاتها وبخاصة فى الحقل الاجتماعى والحقل الدولى .

فأما الحقل الاجتماعى فقد صدرت فيه عدة مؤلفات تكشف عن الحلول العملية التى يملك الإسلام أن يواجه بها الحياة : وقد تذاوبت معظم الاعتراضات التى كان يبديها طلاب العدالة الاجتماعية ؛ ورأوا أن الإسلام يملك أن يحقق عدالة أشمل وأكمل من كل ما تملك تحقيقه جميع المذاهب الاجتماعية الأخرى .

وأما الحقل الدولى ، فربما كان العمل فيه قليلا ، ولم تشرح هذه الناحية بعد شرحا كافيا . وأمامنا اليوم مشكلة السلام العالمى التى تواجهها البشرية جميعا ، ونواجهها نحن ضمنا . فهل للإسلام فيها رأى ؟ ولها عنده حل ؟

هذا الكتاب كله هو الإجابة التفصيلية على هذا السؤال . . .

طبيعة السلام في الإسلام

فكرة السلام فى الإسلام فكرة أصيلة عميقة، تتصل اتصالا وثيقاً بطبيعته ؛ وبفكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان . هذه الفكرة التى ترجع إليها نظمه جميعاً ؛ وتلتقى عندها تشريعاته وتوجيهاته ؛ وتجتمع إليها شرائعه وشعائره ، بشكل لا يخطر على بال الباحثين الدارسين أنفسهم لهذا الدين ، إلا أن يبلغوا بالبحث والدرس إلى الجذور العميقة البعيدة ، ويتتبعوا امتدادها وتفرعها ، فى يقظة وصبر وإحاطة .

وفكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان ليست موضوع بحثى اليوم فى هذا الكتاب ؛ كما أنها لم تكن موضوع بحثى فى كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » ولكن البحث فى أى حقل من حقول الإسلام لا غنى له عن الإلمام بتلك الفكرة الكلية الكبيرة ، لشدة الترابط والتناسق بين أجزائها واتجاهاتها ، وتوثق الصلات بينها و بين كل فكرة جزئية ، أو مسألة تفريعية . . فهذا الدين لا يعالج مشكلات الحياة الإنسانية أجزاء وتفاريق ؛ ولا يقيم كلا منها على أصل لا علاقة له بسائر الأصول . إنما هو يرجعها كلها إلى نقطة ارتكاز واحدة ؛ ويديرها كلها حول محور جامع واحد ، تشدها إلى هذا المحور خيوط ظاهرة أو دقيقة ، ولكنها قائمة على كل حال ، تؤلف من مسائل هذا الدين وقضاياه وحدة كلية جامعة ، مردها إلى فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان .

وطبيعة السلام فى الإسلام على وجه خاص لا غنى لها عن الإلمام بفكرة الإسلام الكلية تلك ، فمنها تنبع نبعاً مباشرا ، و إليها ترجع رجعاً مباشراً . فلنحاول أن نلم بها هنا فى سطور قليلة ، قبل الحديث عن « طبيعة السلام فى الإسلام » كما ألممنا بها هناك قبل الحديث عن « طبيعة العدالة الاجتماعية فى الإسلام » .

***

الإسلام دين الوحدة الكبرى فى هذا الكون الكبير . . الوحدة بين جزئياته جميعاً : من الذرة المفردة إلى أرقى طبقات الحياة المركبة . والوحدة بين مفرداته جميعاً : من الجماد الساكن ، إلى النبات النامى ، إلى الحيوان المتحرك إلى الإنسان الناطق . والوحدة بين نشاطه جميعاً : من دورة الأفلاك والكواكب إلى جولة الأفكار والأرواح . والوحدة بين اتجاهاته جميعاً : من استجابة الأفلاك للناموس ، إلى استجابة الأرواح للمعرفة . والوحدة بين طاقاته جميعاً : من جوعة الجسد للضرورات ، إلى هتاف الروح بالأشواق . . ثم الوحدة بين الأحياء فيه جميعاً ، و بين الأجناس فيه جميعاً ، و بين الأجيال فيه جميعاً ، و بين بدئه ومنتهاه ، و بين أرضه وسماه ، و بين آخرته ودنياه . . .

يبدأ الخطوة الأولى بتوحيد الإله ، الذات التى تصدر عنها الحياة ، و إليها وحدها الاتجاه :

« قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [1] » . . وبذلك يبت كل أسباب الفرقة والخلاف فى مصدر الكون الأول ،

(١) الإخلاص .

ويرفع أسباب الفساد والصدام فى صميم الناموس . فوحدة الإله الخالق تنفى عن ناموس الكون تعدد التصميم والنظام ؛ وتنفى عنه تبعاً لهذا أسباب التعارض والاصطدام . وذلك مصداق ما يقول القرآن : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللهُ لفَسَدَتَا »[١] . ومصداق ما يقول : « ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ . إِذَنْ لَذَهَبَ كلُّ إِلٰهٍ بما خَلَقَ ، وَلَعَلَا بعضُهُم عَلَى بعضٍ »[٢] .

عن إرادة هذا الإله الواحد ، يصدر الكون بطريق واحد : « إنما أَمْرُه إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أن يقولَ له : كُنْ . فيكون[٣] » . فلا وساطة بين الإرادة الموجدة والكون المخلوق ؛ ولا تعدد فى الطريقة التى يصدر بها هذا الكون كله عن الخالق الواحد . إنها مجرد الإرادة التى يعبر عنها القرآن بالكلمة : « كن » وتوجه هذه الإرادة كاف وحده لصدور الكون عنها : « كن فيكون » وبذلك ينفى عن علة صدور الكون كل وساطة أو ثنائية أو تعدد ؛ فينفى كل ظل للتصادم أو التعويق أو التفاوت منذ اللحظة الأولى ؛ ويقرر انسياب الكون فى طريق الوجود بيسر وبساطة وتناسق . هذا التناسق الملحوظ فى الظاهر ، الكامن كذلك فى نظام الكون والحياة كلها والأحياء : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً . ما تَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوتٍ . فَارْجِعِ البَصَرَ . هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ؟ ثمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصرُ خَاسِئاً وَهُو حَسِيرٌ »[٤] .

وفى يد هذا الإله الواحد ملك كل شىء ؛ وإليه يتوجه الكون كله ، وحدة

---

(١) الأنبياء ٢٢ .
(٢) المؤمنون ٩١ .
(٣) يس ٨٢ .
(٤) تبارك ٣، ٤ .

وأفراداً ، فى الدنيا والآخرة ، فى العمل والصلاة ، فى المحيا والممات . وإليه مرده كما كان عنه مورده : « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً[١] » .. « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ[٢] » .. « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ[٣] » . . وبذلك ينفى عن الكون والحياة والأحياء فكرة ضلال الغاية أو تعدد الوجهة ، أو تصادم الغرض ؛ ويقيمها على النهج الموحد الواضح المتناسق ؛ ويسلكها فى الطريق الواحد المؤدى إلى الغاية . غاية الجميع ووجهة الجميع .

هذا الكون المتفرق الأجزاء ، المتعدد الأشكال ، المتنوع الأحجام .. يرجع إلى أصل واحد ، وإلى طبيعة واحدة . وقد كان فى أصله مجتمعاً ، ثم تفتقت أجزاؤه ، وتكونت أبعاده : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ؟[٤] » . ويخضع كله لناموس واحد ؛ ينسق حركاته ، ويقيه التصادم والتهدم ؛ ويهيمن على أجرامه وأفلاكه ، وينظم سيرها ومجراها : « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا . ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[٥] » .. وبذلك ينفى عن أجزاء الكون المتفرقة صفة التقاطع والتناثر ؛ ويثبت لها صفة التوحد والتناسق ، فى طبيعة التكوين . وفى صميم الناموس ، وفى نظام الحركة سواء .

---

(١) تبارك ١،٢ (٢) الإسراء ٤٤ (٣) الذاريات ٥٦
(٤) الأنبياء ٣٠ (٥) يس ٣٨ — ٤٠

والحياة فى هذا الكون مقصودة وليست فلتة عابرة . وقد روعى فى تصميم الكون وفى ناموسه أن يسمح بظهور الحياة ؛ وأن يوافيها بحاجاتها وحاجات الأحياء ؛ وأن يحرسها من التحطيم والهلاك والفناء .

فهذه الأرض « جعلَ فيها رواسىَ من فوقها ، وبارك فيها ، وقدَّر فيها أقواتها[(١)] » .. « وألقى فى الأرض رواسِىَ أن تميدَ بكم »[(٢)] .. « والأرضَ وضعها للأنام فيها فاكهة والنخلُ ذاتُ الأكمام والحبُّ ذو العصف والريحانُ[(٣)] » . «هو الذى جعلَ لكم الأرضَ ذلولاً فامشُوا فى مناكبها وكُلوا من رزقه[(٤)] » . وهذه السماء قد روعى فى تصميمها مقتضيات الحياة : « وزيَّنَّا السماء الدُّنيا بمصابيحَ وحِفظاً[(٥)] » .. « ويُمسكُ السماء أن تقعَ على الأرض إلا بإذنه[(٦)] » . وهذه الرياح بين السماء والأرض فى خدمة الحياة والأحياء : « اللهُ الذى يرسلُ الرياحَ فتثيرُ سحاباً ، فيبسُطُه فى السماء كيفَ يشاء ويجعله كِسَفاً ، فترى الوَدْقَ يخرج من خِلاله ، فإذا أصابَ به من يشاء من عباده إذاهم يَستبشرون[(٧)] » .. وبذلك يقرر التعاون والتناسق بين طبيعة الكون وطبيعة الحياة فى عمومها ويبعد فكرة التصادم والتعارض . كما يقرر مبدأ النظام المقصود فى بناء الكون ، وينفى فكرة المصادفة العمياء التى لا تقوم على نظام .

والحياة النابضة فى هذه الأرض خرجت من أصل واحد ، وتحتوى كلها على هذا العنصر الواحد . عنصر الماء الذى هو الأصل للأحياء : « وجعلْنا من الماءِ كلَّ شىءٍ حىٍّ[(٨)] » . . والأحياء العليا منها تشترك فى خاصية واحدة .

---

(١) فصلت ١٠ (٢) النمل ١٥ (٣) الرحمن ١٠ – ١٢
(٤) تبارك ١٥ (٥) فصلت ١٢ (٦) الحج ٦٥
(٧) الروم ٤٨ (٨) الأنبياء ٣٠

خاصية التزاوج : « سُبْحَانَ الذى خلَق الأزواجَ كلَّها : مما تُنْبِتُ الأرضُ ومن أنفُسِهم ومما لا يعلمون[١] » . . « فاطرِ السَّموات والأرضِ ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجا[٢] » . . وتشترك فى تنظيم جماعى واحد « وما مِنْ دابةٍ فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم[٣] » . . وبذلك يقوم النسب بين الأحياء فى الأرض جميعا ؛ ويصبح الأحياء أسرة واحدة ، نبتت من أصل واحد ؛ وتقوم القرابة بين الأحياء العليا كلها ذات الخصائص الواحدة .

والإنسان ، أرقى نماذج الحياة ، مصوغ كيانه من مادة الكون الأولى ، ونسبه إلى مادة هذا الكون عريق : « ولقد خلقْنا الإنسانَ من سُلالة من طين »[٤] وأفراد هذا الإنسان بعد ذلك موحدون فى أصلهم الواحد ، متساوون فى نسبتهم إليه : « أنتم بنو آدم وآدم من تراب »[٥] . . وكل أفراد هذا الجنس خلقوا من نفس واحدة ، ومن هذه النفس الواحدة خلق زوجها ، ومنهما معاً صدر الأفراد جميعاً : « يا أيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكم الذى خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها ، وبثَّ منهما رجالا كثيرا ونساءً »[٦] .. وكلهم خلقوا ليتعارفوا ويتآلفوا لا ليتناحروا ويتدابروا : « يا أيُّها النـاسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارفوا »[٧] . . وبذلك يزيل كل أسباب النزاع العنصرية والجنسية ، بتقرير وحدة الإنسانية فى طبيعتها وفى أصلها وفى نشأتها ؛ وبتقرير الغاية من تفرق الأجناس والقبائل ، والنص على أنها التعارف والتآلف ، لا التناحر والتدابر .

---

(١) يس ٣٦ (٢) الشورى ١١ (٣) الأنعام ٣٨ (٤) المؤمنون ١٢
(٥) مسلم وأبو داود (٦) النساء ١ (٧) الحجرات ١٣

إلى هذه البشرية الواحدة أرسل الله الواحد رسالة واحدة، المؤمنون بها أمة واحدة : « شرَع لكم من الدِّين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليكَ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسىٰ : أن أقيمُوا الدينَ ولا تتفرّقوا فيه »[١] .. « قولوا : آمَنّا بالله وما أُنزلَ إلينا، وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحٰقَ ويعقوبَ والأسباطِ ، وما أُوتىَ موسى وعيسى وما أوتى النبيُّون من ربِّهم ، لا نُفرِّقُ بين أحد منهم، ونحن له مُسْلمون »[٢] .. « يا أيها الرُّسل كلُوا من الطيّبات واعملوا صالحاً . إنى بما تعملونَ عليمٌ . وإنَّ هٰذه أُمّتُكم أمةٌ واحدةٌ وأنا ربُّكم فاتَّقُون »[٣] .. وبذلك يزيل كل أسباب النزاع الدينية بتقريره أن الدين كله من عند الله ، وأنه دين واحد يدعو إلى الإسلام لله الواحد بلا شريك ، وإلى الدينونة لهذا الإله الواحد دينونة مطلقة فى أمور الدنيا وأمور الآخرة بلا تفريق .

ثم يسير الإسلام أشواطاً أخرى فى تقرير فكرة الوحدة الكبرى ؛ ويتسلل بها إلى كوامن النفس ونزعات الجسد وسبحات الروح ؛ ويدخل بها إلى كل زاوية فى حياة الإنسان ، وإلى كل وجهة من وجهات الحياة ... ولكن هذه مباحث لا حاجة بنا هنا لتقصيها . فحسبنا هذا القدر فى التمهيد لبيان « طبيعة السلام فى الإسلام » .

***

من هذا التناسق فى طبيعة الكون ، وفى ناموس الحياة ، وفى أصل الإنسان .. تستمد طبيعة السلام فى الإسلام ؛ فتستند إلى أصل أصيل عميق ؛

---

(١) الشورى ١٣   (٢) البقرة ١٣٦   (٣) المؤمنون ٥١ ، ٥٢

ويصبح السلام هو القاعدة الدائمة ، والحرب هي الاستثناء الذي يقتضيه الخروج عن هذا التناسق بالبغي والظلم ، أو بالفساد والاختلال ، فترده الحرب الموقوتة إلى التناسق الدائم والصلاح الواجب .

ذلك أن الإسلام ينفي منذ الخطوة الأولى معظم الأسباب التي تثير في الأرض الحروب ؛ ويستبعد ألواناً من الحرب لا يقر بواعثها وأهدافها :

يستبعد الحروب التي تثيرها العصبية العنصرية ؛ فلا مكان فيه للعصبية العنصرية ، وهو يقرر أن الناس كلهم من أصل واحد ، وأنهم خلقوا كلهم من نفس واحدة ، وأنهم جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا .

ويستبعد الحروب التي تثيرها العصبية الدينية بمعناها الضيق الذي عرفه الصليبيون وغير الصليبيين ؛ فلا مكان فيه للعصبية الدينية بمعنى كراهية الأديان الأخرى وإنكارها لذاتها دون بحث في مبادئها وحقائقها ، وهو يقرر أن دين الله واحد ، وأن المؤمنين أمة واحدة ، كلهم يدينون بالإسلام بمعنى الاستسلام الكلي لله ، وعبادته وحده بلا شريك . ويقرر في الوقت ذاته أن : « لا إكراه في الدين [(١)] » ويأمر نبيه أمراً صريحاً ألا يتجاوز في دعوته لأصحاب المعتقدات الأخرى حد التذكير والتنوير : « وقل للذين أوتوا الكتابَ والأمِّيين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » [(٢)] ما لم يكفروا بالله ، ويحلوا ما حرم الله : « قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسوله ، ولا يَدينون دينَ الحق من الذين أوتوا الكتابَ ، حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون [(٣)] » .

ويستبعد الحروب التي تثيرها المطامع والمنافع : حروب الاستعمار والاستغلال

---

(١) البقرة ٢٥٦ (٢) آل عمران ٢٠ (٥) التوبة ٢٩

والبحث عن الأسواق والخامات ، واسترقاق المرافق والرجال . فلا مكان فيه لهذه الحروب ، وهو يعد البشرية كلها وحدة متعاونة ، بل يعد الحياة كلها أسرة قريبة النسب ، بل يَعُد الكون كله وحدة غير متنازعة الأهداف . وهو يأمر بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . وهو يحرم السلب والنهب والغصب . وهو يعِد البشرية كلها بالعدل المطلق ، لافارق بين جنس أو لون أو دين فى الاستمتاع الكامل بعدل الله .

كما يستبعد الحروب التى يثيرها حب الأمجاد الزائفة للملوك والأبطال ، أو حب المغانم الشخصية والأسلاب : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « الرجلُ يقاتِلُ للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى فمن فى سبيل الله ؟ قال — صلى الله عليه وسلم : « من قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] .

* * *

هنا نتبين تلك الحرب الوحيدة المشروعة التى يقرها الإسلام : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » فماذا هى كلمة الله التى يقاتل من يقاتل فى سبيلها فيكون فى سبيل الله ؟

إن كلمة الله هى التعبير عن إرادته ، و إرادته الظاهرة لنا نحن البشر ، هى التى تتفق مع الناموس الذى وضعه للكون والحياة والناس . وقد مر بنا أن التناسق فى طبيعة الكون والتعاون فى حياة البشر هما القانون الذى يريده الله للحياة . التناسق الذى يمنع الفساد والاضطراب ، ويسمح للحياة بالرقى الدائم والارتفاع .

---

(١) أخرجه الخمسة

والتعاون الذى يحقق الخير العام للبشرية فى جميع الأعصار : « وتَعاونوا على البرِّ والتقوى ، ولاَ تَعاونوا على الإثم والعدوان[١] » .

ولقد جاء الإسلام إلى هذه الإنسانية كلها ، فمن تحقيق كلمة الله أن يصل هذا الخير الذى جاء الإسـلام به إلى الناس جميعاً ؛ وألا يحول بينهم و بينه حائل . فمن وقف فى طريق هذا الخير أن يصل إلى الناس كافة ، وحال بينهم و بينه بالقوة ، فهو إذن معتدٍ على كلمة الله ، و إزالته من طريق الدعوة هى إذن تحقيق لـكلمة الله . لا لفرض الإسلام فرضاً على الناس ، ولـكن لمنحهم حرية المعرفة وخبرة الهداية ، فالإسلام لا يُكره أحدا على اعتناقه ، ولـكنه يَكره الذين يقفون بالقوة فى طريقه ، ويفتنون الناس عنه : « وقاتِلوهم حتى لا تـكونَ فتنةٌ ويكونَ الدين كلُّه لله »[٢] وهذه حرب من الحرب التى يقرها الإسلام ، ويحرض عليها تحريضاً ، ويدعو رسوله أن يحرض عليها المؤمنين ، ويحب الذين يخوضونها ، و يعدهم أعلى درجات الرضوان .

ولقد جاء الإسلام ليحقق العدالة فى الأرض قاطبة ؛ ويقيم القسط بين البشر عامة. العدالة بكل أنواعها : العدالة الاجتماعية، والعدالة القانونية ، والعدالة الدولية . فمن بغى وظلم وجانب العدل فقد خالف عن كلمة الله . وعلى المسلمين أن يقاتلوا لإعلاء كلمة الله ، وأن يردوا الشاردين عنها إليها حتى لو امتشقوا الحسام فى وجوه المسلمين الباغين . فالعدل المطلق ، ورد البغى والعدوان ، هو كلمة الله التى يجب أن تعلو فى كل حال وفى كل مكان : « و إنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلِحوا بينهما. فإن بَغتْ إحداهما على الأخرى ، فقاتِلوا التى تَبغى حتى

---

(١) المائدة ٢   (٢) الأنفال ٣٩

تفيءَ إلى أمرِ الله ، فإن فاءتْ فأصلِحوا بينَهما بالعدلِ وأَقسِطوا . إن اللهَ يُحب المُقْسِطين »[١] .

وإذا كان الإسلام يدعو المسلمين أن يقاتلوا المسلمين لرد البغى وتحقيق القسط ، فهو يدعوهم إلى دفع الظلم كافة ، إلى دفع الظلم عن أنفسهم وإلى دفعه عن كل مظلوم لا يملك له دفعاً ؛ على ألا يعتدوا هم ولا يبغوا حتى فى رد العدوان عنهم : « وقاتِلوا فى سبيلِ اللهِ الذين يُقاتلونَكم ولا تعتَدوا ، إنَّ الله لا يحب المعتدين »[٢] .. « وما لَكُمْ لا تقاتلون فى سبيلِ الله والمُسْتَضْعَفين من الرجالِ والنساءِ والوِلْدانِ الذين يقولونَ : ربَّنا أخرِجْنا من هٰذِه القريةِ الظالمِ أهلُها، واجعلْ لنا مِن لَدُنْكَ ولِيًّا ، واجعلْ لنا من لَدُنْك نصيرًا[٣] » .

لهذه الأغراض العليا وحدها يحمل الإسلام السيف ، ويعظم الإسلام الجهاد ، ويعدُ المجاهدين أعلى درجات الشهادة والجزاء : « إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهُم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ ، يُقاتلونَ فى سبيلِ اللهِ فيَقتُلون ويُقتَلون . وعداً عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ[٤] » .. « ولا تحسَبَنَّ الذين قُتِلُوا فى سبيلِ الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرْزقون ، فَرِحِينَ بما آتاهم اللهُ مِن فضله ، ويَستبشرون بالذين لم يَلحقوا بهم مِن خلفِهم ألَّا خوفٌ عليهم ولاهم يَحزنون ، يَستبشِرون بنعمةٍ مِن الله وفضلٍ ، وأن اللهَ لا يُضيع أجر المؤمنين[٥] » .

ولهذه الأغراض العليا وحدها يدعوهم أن يعدوا العدة ، ويهيئوا القوة ، وألا يهنوا ويدعوا إلى السلم الرخيصة : « وأَعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قُوَّةٍ

(١) الحجرات ٩ (٢) البقرة ١٩٠ (٣) النساء ٧٥
(٤) التوبة ١١١ (٥) آل عمران ١٦٩ — ١٧١ .

ومن رِباط الخيْلِ تُرهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم [١] » . . « ولا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأعْلَوْن واللهُ معكم ، ولَنْ يَتِرَكُمْ أعمالَكم [٢] »

على أن إعداد العدة ، وتوفير القوة غرض مقصود لذاته ، وضرورة من ضرورات الفكرة الإسلامية . . إن الإسلام هو آخر رسالة السماء إلى الأرض، وهو جمّاع العقيدة التى أرادها الله للبشر ، وهو « الدين » الذى جاء بقواعده الأساسية كل رسول : « إن الدين عند الله الإسلام [٣] » فكل نبى جاء ليأمر الناس بعبادة الله الواحد دون شريك ، والإسلام لله الواحد بلا تردد . ثم جاء محمد بهذا الدين « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه [٤] » .

هذه الرسالة الأخيرة إذن هى الوصية على روح البشرية كلها وعلى حياتها جميعاً . ولابد للوصى من قوة تقرر وصايته ، لا عن طريق الإرغام والإرهاب ، ولكن عن طريق الاحترام والهيبة . والناس هم الناس لابد أن يزيغوا إذا لم يجدوا الرادع القوى الذى يحفظ الحدود ويحميها ، فلابد أن تكون هنالك قوة يحسبون حسابها ، ولو لم تمد إليهم يدها . والهدى الأعزل مهمل ، والخير الضعيف منبوذ .

فإعداد القوة واجب ، واجب ليكون فى هذه الأرض سلطة عليا ترد الشاردين عن الحق إليه ؛ وتقف الطغاة عن البغى والعدوان ؛ وتحفظ على الآمنين أمنهم وسلامتهم ، وتعز كلمة الله عن الاستخفاف والهوان .

فأما حين تتحقق الحرية المنيعة ، فلا يصد الناس بالقوة عن كلمة الله ، ولا يفتنون عن دينهم الذى ارتضوه . وحين تتحقق العدالة الخيرة ، فلا يبغى

---

(١) الأنفال ٦٠ (٢) محمد ٣٥ (٣) آل عمران ١٩
(٤) المائدة ٤٨

بعض الناس على بعض ، ولا يستذل بعضهم رقاب بعضهم . وحين يتحقق الأمن للضعفاء الذين لا يملكون عن أنفسهم دفاعاً ، ويكف الباغى عن بغيه ويجنح إلى السلم والمهادنة . . حين يتم هذا فالإسلام المالك للقوة المستعد للطوارىء يحرم الحرب تحريماً ، ويدعو إلى السلم فوراً : « وإن جَنَحوا للسَّلْمِ فاجنحْ لها وتوكَّلْ على اللهِ »[١] . . « فإن اعتزَلوكم فلمْ يُقاتلوكم وألقوْا إليكمُ السَّلَمَ فما جعلَ اللهُ لكم عليهم سبيلا »[٢] .

ذلك إجمال فكرة السلام فى الإسلام : السلم قاعدة والحرب ضرورة . ضرورة لتحقيق خير البشرية ، لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد . ضرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التى جعلها الله غاية للحياة الدنيا . ضرورة لتأمين الناس من الضغط ، وتأمينهم من الخوف ، وتأمينهم من الظلم ، وتأمينهم من الضر . ضرورة لتحقيق العدل المطلق فى الأرض ، فتصبح إذن كلمة الله هى العليا .

وواقع الإسلام التاريخى يثبت هذه المبادىء النظرية . فلقد جاء محمد مأموراً أن يبلغ الرسالة للناس كافة : « وما أرسلناك إلا كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً »[٣] ، وأن يعلن دعوة الله خالصة ، بلا منٍّ وبلا أجر : « يا أيُّها المُدَّثّرُ . قمْ فأنذرْ ، وربَّكَ فكبّرْ ، وثيابَكَ فطهّرْ . والرُّجْزَ فاهجرْ ، ولا تَمْنُنْ تستكثرُ ، ولربِّكَ فاصبرْ »[٤] . . وأن يسلك بالدعوة طريق الجدل بالحسنى ، والإقناع بالحجة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فى غير قسوة ولا غلظة : « ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، وجادلْهم بالتى هى أحسنُ »[٥] . « وما أنتَ عليهم بجبَّارٍ ، فذكّرْ بالقرآنِ من يخاف وعيدِ »[٦] .

---

(١) الأنفال ٦١ (٢) النساء ٩٠ (٣) سبأ ٢٨
(٤) المدثر ١ — ٧ (٥) النحل ١٢٥ (٦) ق ٤٥

وهكذا سارتِ الدعوةُ على هذا الأساس ، لا يبغى محمد من الناس إلا أن يستمعوا إليه ، فإنْ صغتْ قلوبهم إلى الإيمان فليؤمنوا ، و إن قست قلوبهم وران عليها الضلال فأمرهم إلى الله .

ولكن الناس لم يسالموا محمداً كما سالمهم ؛ ولم يدعوا للدعوة السلمية طريقها ، ولا لمعتنقيها المقتنعين بها حريتهم ؛ فآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم ، وقاتلوهم حيثما وجدوهم ؛ وحالوا بين الدعوة و بين الأسماع بالقوة المادية المجردة من كل إقناع .

عندئذ حمل الإسلام السيف ليذود عن مبدأ أساسى من مبادئه : مبدأ حرية الدعوة وحرية العقيدة : « أُذِنَ لِلّذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا . و إن الله على نَصرِهِم لَقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍ إلّا أن يَقولوا : رَبُّنا الله . ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسم الله كثيراً ، ولَيَنْصرَنَّ اللهُ مَن ينصره . إن اللهَ لَقوىٌّ عزيزٌ » (١) .

ولقد هادن النبى صلى الله عليه وسلم كل من طلب الهدنة ، وكل من اتخذ عنده عهداً ، فلم يقاتل منهم إلا الذين نقضوا عهودهم ، وتآمروا على المسلمين مع أعدائهم . وفى ذلك كانت غزوة بنى قريظة بعد ما ألبوا الأحزاب على المسلمين فى غزوة الخندق ، تنفيذاً لأمر الله فى ناقضى العهد وناكثيه : « إن شرَّ الدَّوابّ عند الله الذين كفروا فهمْ لا يؤمنون ، الذين عاهدْتَ منهم ثم

---

(١) الحج ٤٠

يَنْقضون عهدهم فى كلّ مرة وهم لايتَّقون . فإمَّا تَثْقفَنَّهُمْ فى الحرْبِ فشرّدْ بهم مَن خلَفَهم لعلَّهم يذَّكَّرونَ » (١) .

ولقد كان الشرط الرابع من هدنة الحديبية التى عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش : « أن من دخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن دخل فى عهد محمد دخل فيه » و بناء على ذلك تحالف بنو بكر مع قريش ، وتحالفت خزاعة مع محمد . وقد كانت قبيلة خزاعة حليفة فى الجاهلية لعبد المطلب جَدّ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فأرادت أن تجدد ميثاقها معه كما كان مع جده . وكان ميثاقها مع عبد المطلب يتضمن هذه الفقرة : « إن عبد المطلب وولده ورجال خزاعة متضافرون يتعاونون ، وعلى عبد المطلب النصرة لهم ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده على جميع العرب فى شرق وغرب وحَزن وسهل » .

وقد أقر النبىّ هذه المعاهدة ؛ ولكنه زاد فيها شرطين يحددان فيم يكون التعاون والنصر ، كى تتفق مع مبادئ الإسلام الأساسية. وكان هذان الشرطان : « ألا يعين خزاعة إذا كانوا ظالمين » و « أن ينصر خزاعة إذا ظُلموا » .

وكانت خزاعة حتى ذلك الوقت لم تسلم . ولكن محمداً باسم الإسلام تعهدلها بالنصر من الظلم ، لأن الإسلام يكرهه فى جميع صوره وأشكاله ، و يدفعه سواء وقع على أهله أو المعتنقين ديناً غير دينه .

ولقد قال النبىّ عن حلف الفضول الذى كان معقوداً فى الجاهلية : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفا ما أحب أنّ لى به حُمْرَ

---

(١) الأنفال ٥٥ — ٥٧

النَّعَم ، لو أدعى به فى الإسلام لأجبتُ »(١) .

فماذا كان فى هذا الحلف الذى لايحب محمد أن تكون له النوق الحسان وأن ينقضه ؟ إنه الحلف الذى اجتمع عليه بنو هاشم والمطلب ، وأسد بن عبد العُزَّى ، وزهرة بن كلاب ، وتَيْم بن مُرَّة ؛ وتحالفوا فيه على « رد المظالم و إنصاف المظلوم من الظالم » . وكان النبى صلى الله عليه وسلم وقتها فى الخامسة والعشرين قبل النبوّة .

ولم يكن يوماً من أغراض الحرب فى الإسلام إكراه الناس على اعتناقه ، لافى مبادئه النظرية ولا فى واقعه التاريخى . اللهم إلا فلتات عارضة وقعت خطأ ممن لم يفهموا حقيقة الدعوة الإسلامية ، ولا تحسب على الدين لأنها ليست من هذا الدين ؛ وما انتشر الإسلام بالسيف كما يصمه الجاهلون به ، والمعادون له ، وما كانت الحرب رائده ووسيلته وطبيعته فى دعوته .

يقول « سير . ت . د . أرنولد » فى كتابه : « الدعوة إلى الإسلام » ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه فى ص ٥١ :

« ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة ، واستمر فى الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار و إرادة حرة ، و إن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح » .

---

(١) رواه ابن هشام فى السيرة من حديث ابن إسحاق .

ويقول أيضا قبل ذلك فى صفحة ٤٨ :

« ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسماً فى تحويل الناس إلى الإسلام ، فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرّية فى إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم . وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبى وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم » .

وفى هذا وفى أمثاله ما يدفع تلك الدعوى ؛ ومايجزم بأن حروب الإسلام لم تكن لإكراه الناس على الدين ، ولا للاستعمار والاستغلال والإذلال . إنما كانت إعلاء لكلمة الله فى الأرض بإيصال الخير الذى جاء به الإسلام للناس عن طريق الرضى والإقناع ، وبتحقيق العدالة والأمن والسلام .

* ** *

ولا يتم الحديث عن طبيعة السلام فى الإسلام حتى نشير إلى المجال الذى يعمل فيه الإسلام . إن الإسلام فى طبيعته الكلية فى النظرة إلى الحياة ، لايجزئ السلام ، ولا ينشده فى حقل مفرد من حقول الحياة . إنما يجعل السلام كله وحدة ، ويحاول تحقيقه فى كل حقل ، ويربط بينه وبين الفكرة الكلية عن الكون والحياة والإنسان . وبذلك تصبح كلمة « السلام » التى يعنيها الإسلام ذات دلالة أعمق وأشمل من معناها الذى تتعارف عليه الدول فى هذه الأيام . فهو السلام الذى يحقق كلمة الله فى الأرض من العدل والأمن لجميع الناس ، لامجرد الكف عن الحرب بأى ثمن ، مهما يقع فى الأرض من ظلم ومن فساد !

وحين يحاول الإسلام إقرار السلام الشامل وفق مبادئه العليا فى تحقيق كلمة الله ، لايبدأ به فى مجال السلام الدولى ، فتلك نهاية المرحلة لابدايتها . وما السلام الدولى إلا الحلقة الأخيرة التى تسبقها حلقات .

إن الإسلام يبدأ محاولة السلام أولا فى ضمير الفرد ، ثم فى محيط الأسرة ، ثم فى وسط الجماعة . وأخيراً يحاوله فى الميدان الدولى بين الأمم والشعوب .

إنه ينشد السلام فى علاقة الفرد بربه ، وفى علاقة الفرد بنفسه ، وفى علاقة الفرد بالجماعة . ثم ينشده فى علاقة الطائفة بالطوائف ، وعلاقة الأفراد بالحكومة . ثم ينشده فى علاقة الدولة بالدول بعد تلك الخطوات .

وإنه ليسير فى تحقيق هذه الغاية الأخيرة فى طريق طويل ، يعبر فيه من سلام الضمير ، إلى سلام البيت ، إلى سلام المجتمع ، إلى سلام العالم فى نهاية المطاف . فَلْنَقِفْ فيما يلى خطوات الإسلام فى سبيل السلام .

سلام الضمير

لا سلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع بالسلام .. تلك هى فكرة الإسلام .. فإذا شاء أن يقيم السلام العالمى على أساس ركين ، فهو يبدؤه هنالك فى قرارة الضمير .

وللفرد فى النظام الإسلامى قيمة أساسية ، فهو اللبنة الأولى فى بناء الجماعة ، وفى ضميره تنبت البذرة الأولى للعقيدة ، وفى سلوكه تستحيل العقيدة المكنونة حقيقة ظاهرة ، بل يستحيل هو ذاته ترجمة حية لهذه العقيدة .

وفى ضمير الفرد يغرس الإسلام بذرة السلام . السلام الإيجابى الذى يرفع الحياة ويرقيها ، لا السلام السلبى الذى يرضى بكل شىء ، ويدع المبادىء العليا تداس فى سبيل العافية والسلامة ! السلام النابع من التناسق والتوافق ، المؤلف من الطلاقة والنظام ، الناشىء من إطلاق القوى والطاقات الصالحة البانية ، ومن تهذيب النزوات والنزغات ، لا من الكبت والتنويم والجمود . السلام الذى يعترف للفرد بوجوده و بنوازعه و بأشواقه ؛ و يعترف فى الوقت ذاته بالجماعة ومصالحها وأهدافها ، وبالإنسانية وحاجاتها وأشواقها ، و بالدين والخلق والمثل ... كلها فى توافق واتساق .

المنطق والعقيدة

يعقد الإسلام السلام بين المنطق الإنسانى والعقيدة الدينية منذ الخطوة الأولى . فالإسلام عقيدة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض .

الله . . ليس كمثله شيء . وهو خالق كل شيء . ومحمد بشر كسائر البشر أوحى إليه أن يهدى الناس إلى عبادة هذا الإله الواحد بلا شريك . ليس الله واحداً فى ثلاثة ولا ثلاثة فى واحد ، وليس والداً ولا مولوداً . . ومحمد ليس بشراً وإلٰهاً ، وليس رسولاً فى الأرض ورباً فى السماء .

فى الإسلام لا شيء من الألغاز والمعميات ، التى تهرب من الضوء ، وتدع المنطق الإنسانى فى حيرة ، والضمير الفردى فى قلق . لأنه إما أن يؤمن فيهمل منطقه ، وإما أن يعتصم بالمنطق فيقوده إلى الكفر والإلحاد ، وإما أن يبقى متأرجحاً بينهما ، ممزقاً مضطربا لا يقر على قرار .

وفى الإسلام ليس من العسير تصور بشر يتصل بالقوة الكبرى ؛ ففى روح الإنسان تلك الطاقة التى تصله بتلك القوة ؛ وأفراد عاديون يحسون فى تجاربهم العادية تلك الصلة ؛ ولكن أرواحهم لا تثبت لهذا الاتصال إلا لحظات خاطفات . أما أرواح كأرواح محمد وعيسى وإبراهيم ، فلا يتعذر تصور استمدادها من هذه القوة وتلقيها .

وإذا قيست صعوبة تصور الوحي على هذا النحو بصعوبة تصور اللاهوتية والناسوتية فى أقنوم ، وتصور ثلاثة فى واحد ، وتصور نزول الإله إلى الأرض فى صورة ابنه ليعانى الآلام تخليصاً للبشرية من خطيئة آدم . . . إلى آخر أوهام الكنيسة والمجامع التى دستها فى المسيحية . إذا قيست تلك الصعوبة إلى هذه الصعوبات فإنها تبدو يسيرة يسيرة .

لقد دخلت هذه الأساطير إلى المسيحية ، وهى منها بريئة ، فالمسيحية فى منابعها الأولى صورة من الدين الواحد الذى أرسل الله به رسله جميعا .

دين التوحيد الذى لا يجعل لله شريكا ، والذى يطلق البشر من العبودية لشريك . ولكن الرومان الذين دخلوا فى المسيحية ومعهم آلهتهم المتعددة لم يطيقوا أن يخلصوا سريرتهم لهذا التوحيد فى المسيحية ، ومن ثم بدأت تلك الأساطير ؛ وشيئاً فشيئا صارت هى المسيحية كما تعرفها الكنيسة ، أى المسيحية الرسمية التى يشرد من لا يعتنقها و يكتب عليه الحرمان !

ولكن صيرورة المسيحية إلى هذا الوضع أوقعت المثقفين من المسيحيين فى قلق نفسى وفكرى دائم . فهم إما أن يستجيبوا لمنطقهم فيخرجوا من عداد المؤمنين إلى عداد الملحدين . وإما أن يلغوا عقولهم ليحتفظوا بعقيدة هذه أساطيرها التى تحميها الكنيسة . وإما أن يكلوا أنفسهم إلى القلق الروحى الدائم بين جوعتهم إلى العقيدة ، ومنطقهم الذى ينفر من تلك الأساطير .

•

وفى الإسلام كاد يحدث ما حدث فى المسيحية ، فالرغبة البشرية فى الأساطير والتهاويل ظلت تحاول أن تغشى على وضوح الإسلام وبساطته ، وظلت تصوغ حول محمد بن عبد الله ، وحول المختارين من آل بيته وبخاصة الحسين رضى الله عنه . . ظلت تصوغ الخرافات والهالات التى تأباها طبيعة الإسلام ؛ وظلت تجد عند العامة قبولا لا تجده حقائق الإسلام الواضحة البسيطة !

ولكن بناء الإسلام ذاته بقى سليما ، وأصوله بقيت محفوظة ، فلقد كانت طبيعته من الوضوح والبساطة بحيث بقيت هذه التهاويل والأساطير تتناثر على هامشه ، ولا تدخل فى بنيته .

فى المسيحية قادت الكنيسة ذاتها هذه التهاويل وتبنتها ، لأنها تزيد

من سلطانها على نفوس الجماهير ؛ وكان تعقيد العقيدة ، و إحاطتها بأجواء من الغموض غرضاً مقصودا لتكون للكنيسة فى حياة الناس وظيفة . و إلا فلو ظلت العقيدة المسيحية بسيطة كما هى ، واضحة كما هى ، مفهومة كما هى . . فماذا يصنع رجال الدين ؟ وماحاجة الناس إليهم إذا استطاعوا هم بأنفسهم أن يفهموا دينهم ، وأن يمارسوا شعائرهم ، وأن يتصلوا مباشرة بخالقهم ؟... إنه لا بد من هذا الغموض . لا بد من هذه الرؤى والأحلام والأساطير ، كى يلجأ الناس إلى الكنيسة دائماً ، تحل لهم رموز العقيدة ، وتكشف لهم بحساب عن الأسرار . و بذلك يبقى سلطان الكنيسة كاملا ، وتبقى سلطتها كاملة ؛ ولا يملك الناس أن يخطوا خطوة فى حياتهم الدينية ، وفى حياتهم الروحية إلا ومعهم كاهن أو قديس !

أما فى الإسلام فلم تكن هناك كنيسة . لم تكن هناك هيئة « اكليروس » لا تقام شعائر الدين بدونها ، ولا يتصل الفرد بخالقه إلا عن طريقها . والإسلام يعد نفسه منقذاً للفكر البشرى لا من الأسطورة والوهم وحدهما ، بل كذلك من ضغط المعجزة الخارقة للطبيعة ؛ فلم يشأ لهذا أن يجبر الفكر البشرى على الإذعان له بالخوارق الطبيعية . إنما جعل وسيلته إلى الإدراك البشرى وضوحه و بساطته وحقائقه . . وحينما اتفق أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم — ابن محمد الرسول — وضج الناس للحادث ، وقالوا : كسفت الشمس لموت إبراهيم .. بادر محمد صلى الله عليه وسلم لنفى هذه الأسطورة ، كى لا تغشى وضوح العقيدة ونصوعها ؛ وأعلن أن الشمس من آيات الله لا تكسف لموت بشر . و بذلك الحزم الصارم ، والصدق الناصع ،

نهنه الناس عن الاستسلام للرغبة الكامنة فى نفوسهم فى التهاويل الغامضة ؛ ولم يسايرها ولم يستغلها لنشر دينه الجديد ، لأنها فى صميمها مناقضة لطبيعة الدين الجديد .

وبهذه النصاعة وهذا الوضوح يعقد الإسلام السلام بين منطق الفرد وعقيدته ؛ فلا يثور فى نفسه ذلك القلق المضنى الذى تثيره مسيحية الكنيسة المحرفة ، ونظائرها من العقائد التى تمتزج فيها الحقيقة بالأسطورة ، ويختلط فيها الحق بالباطل ، وتتوارى من النور والوضوح ، فلا تعيش إلا فى جو البخور والتراتيل ، لأنها تهرب من الضوء وتخشى أن تلقاه .

نعم . إن القطيع البشرى كان فى حاجة مُلِحَّة ، وهو يواجه الكون العريض ، والطبيعة الهائلة . . أن يحسّ إلٰهه قريباً منه ، معنياً بآلامه وآماله ، فجاء الكثير من أساطير المسيحية الكنسية ليلبى هذه الرغبة العميقة ؛ فأنزل الله من عليائه ليحتمل الآلام تكفيراً عن خطيئة آدم ؛ أو جعل ابنه الوحيد يحتملها رحمة بالبشر : . . إلى آخر تلك الألغاز المحيرة المنطق ، المقلقة للضمير .

فأما الإسلام فيلبى هذه الحاجة ، ولكن بما يتفق مع ألوهية الإله ووحدانيته . يلبيها بإشعار الإنسان أن الله قريب منه ، مستجيب إليه ، لا يغفل عن رعايته ولا ينساه : « وإذا سألكَ عِبادى عَنِّى فإنى قريبٌ ، أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون »(١) . . « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ »(٢) . . « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ

(١) البقرة ١٨٦ (٢) غافر ٦٠

إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَما كانُوا »[1] . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد »[2] .

وهكذا يجد الإنسان صلته الوثيقة بالله ، ويحس رحمته ورعايته واستجابته دون ما حاجة إلى الأساطير المحيرة للعقول .

الأشواق والضرورات

كذلك يعقد الإسلام السلام بين ضرورات الفرد الملحة ، وأشواقه الروحية المرفرفة . ولكنه لايعقده على حساب النوازع الضرورية ، ولا على حساب الأشواق الروحية . إن فكرته فى الوحدة الكلية تطبع نظرته إلى الفرد الإنسانى ، ونظرته إلى دوافع الحياة الممثلة فيه . والضرورات والأشواق كلتاهما تندمجان فى تناسق ، فلا يضيع من طاقتهما الدافعة إلا مايعارض هذا التناسق ، وما يعوق نموّ الحياة الكامل .

ومن ثم يعترف الإسلام منذ اللحظة الأولى بضرورات الحياة الأصيلة الكامنة فى طبيعة البشر ، ولا يرى فيها — فى حالة الاعتدال السوِى — مايتعارض مع الرغبة فى التسامى ، وهى كذلك أصيلة كامنة فى طبيعة البشر .

وحين يدعو الإسلام إلى التطهر الروحى ، والانطلاق من قيود الشهوات فإنه لايعنى كبت الدوافع الحيوية ، وإزهاق الطاقات الحية . إنما هو يدعو إلى أن يملك الإنسان قياد نفسه فلا يكون عبداً مملوكا لشهواته ، ولا حيوانا مدفوعا بنزواته . والإرادة هى مفرق الطريق بين الإنسان والحيوان فى المتاع :
« وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الأَنْعامُ »[3] .

فإذا ملك الإنسان أمره فإن عليه أن يعرف لبدنه حقه ، وعليه أن

---

(١) المجادلة ٧ (٢) ق ١٦ (٣) محمد ١٢

يمتع نفسه بطيبات الحياة ، وأن لايحرّم ما أحله الله . وما أحلّه الله يشمل كل ما تطلبه البنية الصحيحة السوية من لذة ومتاع .

إن دوافع الحياة الطبيعية كلها ليست مستقذرة فى عُرْف الإسلام ؛ والرغبة فى الامتداد ليست سقوطا يترفع عنه المتطهرون . فالرغبة فى امتداد الحياة تتفق مع مشيئة الله فى خلق الحياة ؛ وكل ما يريده الله هو ترقية الحياة لا مجرد امتدادها . وهذا الامتداد هو وسيلة الارتقاء ، وليس مضادّا لفكرة الارتقاء . ومن ثم فالإسلام ينسق الدوافع الحيوية فى بنية البشر ، مع الأشواق الروحية العميقة فى الفطرة ؛ ويصوغ من كلتيهما وحدة ، لاتفريط فيها ولا إفراط ، ولا صراع فى داخلها ولا اصطدام .

والدعوة إلى الاستمتاع فى الإسلام تسير جنبا إلى جنب مع الدعوة إلى التسامى ؛ فتنشأ من بينهما صورة للاعتدال ، البرىء من الفحش ، البرىء من الحرمان : «يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (١)

والفواحش من الفحش وهو تجاوز الاعتدال ، وشأنه شأن البغى بغير

---

(١) الأعراف ٣١ – ٣٣ .

الحق وشأن الإشراك بالله . . كلها مفسد للفطرة ، مناف للعدالة ، مخالف لناموس الحياة المتناسق .

وكذلك تجد الطاقات البشرية السوية مجالها للعمل فى بناء الحياة وفى ترقية الحياة ؛ ولا يظل الفرد ممزقا بين واقع حياته الضرورى لبقائه و بقاء الحياة معه ، وبين الأشواق العلوية التى تهتف له وتناديه .

وكذلك يتم التناسق بين المحافظة على الحياة وترقية الحياة . . يتم هذا التناسق فى ضمير الفرد تبعاً لعقيدته ، كما يتم فى محيط الجماعة تبعاً لسلوكه ؛ فيجد الفرد نفسه فى سلام داخلى مع ضميره ، وفى سلام خارجى مع سواه .

وكذلك يعالج الإسلام أسباب « العقد النفسية » التى أقام عليها « فرويد » وأتباعه مذهبهم ، والتى اعتبروها ضربة لازب لامفرّ منها ، ولعنة يفرضها المجتمع على الفرد بقيوده وتعاليمه ، وبكبت الرغبات التى ينوب ضمير الفرد — أو الذات العليا — عن المجتمع فى فرض الرقابة عليها . . هذه العقد النفسية تقل أو تنمحى فى جو العقيدة الإسلامية ، التى تعترف منذ الخطوة الأولى برغبات الفرد وضروراته ، ولا ترى فيها قذارة ولا انحطاطاً ؛ وتيسر له السبل لتصريفها تصريفاً مأموناً معترفا بشرعيته و بجديته و بنظافته كذلك — وهذا هو المهم — ما دام فى الحدود السوية المأمونة ، التى لا تؤدى إلى انحلال فى شخصية الفرد ، ولا إلى انتكاس حيوانى فى محيط المجتمع .

و يلاحظ الإسلام هذه الرغبات الطبيعية البريئة ملاحظة دقيقة ، فيقدر أن للمرأة فى بعض الأحيان رغبات فى المتاع والزينة غير رغبات الرجل ، و يبيح لها أحياناً ما يحرمه عليه ، مراعاة لفطرتها الأنثوية فى التزين والتجمل . يبيح لها خاتم الذهب ولباس الحرير على حين ينهى الرجل عن هذا التطرى ،

ويعده بالقياس إليه ترفاً مؤذيا . وكل مايحرمه على المرأة فى هذا المجال هو التبرج ، لأن المسألة هنا تخرج من دور المتاع البرىء إلى دور الاستثارة الحيوانية . وهذا هو مفرق الطريق !

وبذلك تنحصر الأسباب المؤدية إلى العقد النفسية — فى جو العقيدة الإسلامية — فى حالات الشذوذ المرضى . أما الطبائع السوية فيتم فيها التوازن والتناسق ، وتختفى عوامل القلق ؛ فينعم الفرد المسلم فى نفسه بالأمن والسلام .

الخطيئة والتوبة

ثم لا يقف الإسلام عند حد الاعتراف للفرد بضروراته وتنسيقها مع أشواقه .. بل يخطو وراء ذلك خطوة أخرى واقعية بصيرة .. إنه يعترف للفرد بدوافع الخطأ والخطيئة ؛ فأما الخطأ والنسيان فمعفيان من المؤاخذة إعفاء : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان[1] » وأما الذنب والخطيئة فباب التوبة منهما مفتوح فى كل لحظة ، يدلف إليه من يشاء ليستغفر ويتطهر ، فلا يطرده من رحمة الله طارد ، ولا يوصد دونه ودون الله باب ، ولا يقوم بينه وبين ربه وسيط .

فإذا ما انزلق الفرد إلى الخطيئة لم تقطع دونه السبل ، ولم يصبح ضائعاً مطروداً ملعنا ، ولم يستبد به الظلام الكافر العاثر . فهنالك النور ، وهنالك الطريق ، وهنالك اليد الحانية الرحيمة : يد التوبة الندية ، تمنحه البرء والعافية ، وتغمره بالروح والظلال : « قلْ : ياعبادىَ الّذين أَسْرَفُوا على أنفسهم

---

(١) من حديث ذكره القرطبي فى التفسير وقال : وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . وقد ذكره الأصيلى فى الفوائد وابن المنذر فى كتاب الإقناع .

لا تَقْنَطوا من رحمة الله : إن الله يغفرُ الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم[١] » .

إن الإله فى الإسلام لا يطارد المذنب مطاردة أبدية ، حتى لا يقيل له عثرة ، ولا يقبل منه توبة ، إلا أن يقتل نفسه ، أو يعذب جسده ، أو ترتكس روحه فى أجسام قذرة رديئة حقباً وأجيالا . وكفارة الخطيئة لا تقتضى أن ينزل الله من عليائه — سبحانه — ليصلب ويقاسى الآلام ، تكفيراً عن خطيئة البشر — وهو خالق هؤلاء البشر ، وقادر على أن يطهرهم بغير صلبه — تعالى — وتعذيبه . وهى كذلك لا تحتاج إلى كاهن وكرسى اعتراف ، أو تبقى معلقة على رأس الفرد لا مخلص له منها ولا فرار . . . !

إنه بحسب أى إنسان أن يتوجه إلى ربه مباشرة ، نادماً تائبا ، غير لاج فى خطيئته ولا سادر ؛ فيفتح له الله بابه ، ويتقبله بين عباده ، ويمنحه رحمته وعفوه . وباب الرحمة فى كل لحظة مفتوح ، ولا يأس من روح الله ولا قنوط ؛ فليدق بابه مستأذناً كل طارق ، بل ليدلف إليه دون استئذان : « ولا تيْئَسُوا من روْحِ الله . إنه لا ييئسُ من روْح الله إلا القوم الكافرون[٢] » .

ويذهب الإسلام فى هذا مذهباً بعيدا ، حتى ليحسبه المرء عند النظرة السريعة يزيّن للناس الخطيئة ليتوبوا من الخطيئة ! . . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون[٣] » ويقول : « والذى نفسى بيده لولم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم[٤] » .

---

(١) الزمر ٥٣ (٢) يوسف ٨٧
(٣) أخرجه الترمذى . (٤) رواه مسلم .

وهو لا يزين الخطيئة هنا ، ولكن ييسر التوبة ، ويملأ نفوس الخاطئين بالرجاء ، وينير لأرواحهم الطريق ، ويمنى هذه الأرواح المتعبة الخائفة بالراحة والأمان . فلا تظل أبدا قلقة حائرة ممزقة لا يقر لها قرار .

ذلك فى الوقت الذى يفرض على ضمير الفرد اليقظة ؛ ويكلفه على نفسه الرقابة ؛ ويحذره خدعة الشهوات المحرمة ، وفتنة النساء والأموال والأولاد ؛ ويصور له الشر شيطانا يوسوس له ، ويتربص به : « زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشَّهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقَنْطَرَةِ من الذَّهب والفضة ، والخيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ والحرثِ . ذلك متاع الحياة الدُّنيا ، والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوْا عند ربهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ ، خالدين فيها وأزواجٌ مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصيرٌ بالعباد الذين يقولون : ربَّنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقِنا عذابَ النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار »(١) . . « ويا آدم اسكن أنت وزوجُك الجنةَ فكلا مِن حيثُ شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطانُ لِيبدىَ لهما ما وُورى عنهما من سوآتِهما ، وقال ما نهاكما ربُّكما عن هٰذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكين ، أو تكونا من الخالدين . وقاسَمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدَلَّاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرةَ بدت لهما سوآتُهما ، وطفقا يَخْصِفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربُّهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما : إن الشيطانَ لكما عدو مبين ؟ قالا : ربَّنا ظلمْنا أنفسَنا وإن لم تغفرْ لنا وترحمْنا لنكونن من الخاسرين . قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ، ولكم فى الأرض مستقرٌّ ومتاع إلى حين »(٢) .

---

(١) آل عمران ١٤ ـ ١٧ (٢) الأعراف ١٩ ـ ٢٤

ولـكن الإسلام لا يصور الصراع بين الإنسان والشيطان فى هذه الصورة ليوقع الناس فى اضطراب نفسى دائم يمزق شخصياتهم ، ويبعثر قواهم ، بل يصوره ليدعوهم إلى اليقظة لدوافع الشر والخطيئة ، ولينتهى إلى تنبيه أبناء آدم وحواء ألا يستسلموا للإغراء والإغواء :

« يابنى آدمَ لا يفتننَّكم الشيطانُ كما أخرجَ أبوَيكم منَ الجنة ، ينزعُ عنهما لباسَهما ليريَهما سوآتِهما . إنه يراكم هو وقبيلُه من حيث لا ترونَهم . إنا جعلنا الشياطين أولياءَ للذين لا يُؤمنون[1] » .

وفى ذات الوقت يقرر أن خطيئة آدم لم تظل مصلتة كالسيف القاطع على رؤوس أبناء آدم ؛ ولم تتطلب كفارة عجيبة ينهض بها الله فى صورة ابن الله . فالأمر أيسر من هذا كله وأهون : « فتلقى آدمُ من ربِّه كلماتٍ ، فتابَ عليه . إنه هو التوابُ الرحيم[2] » .

وبعد فهذا اليسر كله لا يفوت إلا من يصر على الخطيئة ؛ وهذه الأبواب المفتحة كلها لا تغلق إلا فى وجه السادر فى الخطيئة : « بلى ! من كسَبَ سيئةً وأحاطَت به خطِيئَتُه فأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون[3] » . ذلك أن الخطيئة السادرة تغلق القلب وتطمس الضمير ؛ ومن ثم توصد الأبواب وتحقق العقاب .

وما يدع هذه الفرص المتاحة كلها تفلت منه إلا من لا يستحق الرحمة ومن لا يريدها . فأما العديد من الخطائين التوابين ، فالإسلام يمنح ضمائرهم السلام ويهب أرواحهم الاطمئنان ، ولا يطلب منهم أكثر من اليقظة والمحاولة . واليقظة

---

(١) الأعراف ٢٧ (٢) البقرة ٣٧
(٣) البقرة ٨١

والمحاولة لا تمزقان الشخصية ، ولا تورثان القلق . ولقد عرف الإسلام فى واقعه التاريخى رجالا بلغت يقظة ضمائرهم حد الإرهاف ؛ ولكن أرواحهم كانت فى ذروة الاطمئنان ؛ وكانوا هم من الواقعيين العمليين المنشئين كأعظم ما يكون الرجل الواقعى العملى المنشىء فى الحياة . وعلى رأس هؤلاء جميعا أبو بكر وعمر منشئا الإسلام وكافلاه بعد رسول الله . و إنهما لنموذجان كاملان ، لليقظة المرهفة فى الضمير ، والاطمئنان الواثق فى الشعور ، وتجمّع الشخصية ووحدة الاتجاه فى واقع الحياة .

التكليف و الطاقة

يلاحظ الإسلام بصفة عامة ألا يكلف الفرد فوق طاقته ، فى شرائعه أو شعائره ؛ فالتكليف فوق الطاقة ، إيجابا أو منعاً ، لا ينتهى إلا إلى نتائج ثلاث :

١ — إما الإرهاق والعسر ، والحرمان والكبت ، وتحطيم الذات الإنسانية تحت الكبت أو الإرهاق ، وتعويق الحياة من النمو المطرد ، والرقى المعتدل .

٢ — وإما النفور والجماح والخروج على الأوامر والنواهى ، والعداء الجامح الذى يقود صاحبه إلى الغلو فى الإباحة ، كرد فعل للكبت أو الإرهاق .

٣ — وإما القلق النفسى الدائم ، والشعور دائماً بالخطيئة أو التقصير ، فيما لا خطيئة فيه ولا تقصير . وهو عذاب دائم لا يطاق .

ولذلك يحرص الإسلام على أن تكون تكاليفه كلها فى حدود الطاقة ؛ ويرعى الطبيعة البشرية بكل إمكانياتها وهو يشرع إيجابا وتحريماً ؛ ثم يدع

لها أن تتطوع بالأكثر فوق التكاليف المفروضة، إن استطاعت ، فى غير ضيق ولا حرج ولا مشقة . وبذلك يصونها من التحطم ويصونها من الجموح ، ويصونها من القلق الذى لا يريح .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَها »[١] « وما جعلَ عليكم فى الدين من حَرَجٍ[٢] . . » ويقول الرسولُ العظيم : « إن هذا الدين يسر لا عسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه »[٣] وينهى صلى الله عليه وسلم عن التنطع والتشدد فى تفسير الدين وفى القيام بتكاليفه فيقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم »[٤] أو يقول : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق »[٥] . ويشبه المتشدد المرهق لنفسه بالمسافر الذى يهلك راحلته ولا يبلغ غرضه : « إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[٦] .

وفيما مضى أمثلة على هذا القصد والاعتدال ومراعاة الطاقة ، وبخاصة فى التنسيق بين الضرورات والأشواق ، وفى الاعتراف بدواعى الخطأ والخطيئة ، ولا بأس من أن نسوق منه ناحية أخرى .

إن انفعالات الغضب ووجدانات الغيظ انفعالات ووجدانات لا سبيل إلى محوها أو قتلها فى النفس البشرية لأسباب شتى . بعضها ينبع من الشعور بالذات ، وبعضها ينشأ من تصادم المصالح ، وبعضها يأتى من اختلاف المشاعر والمسالك . . . والإسلام يدعو إلى السماحة والرفق والبشاشة ؛ ولكنه لا يلغى من حسابه أن مشاعر الغضب والغيظ مشاعر طبيعية ؛ فلا يكلف الناس محوها

---

(١) البقره ٢٨٦ — (٢) الحج ٧٨
(٣) البخارى والنسائى — (٤) أبو داود
(٥) البخارى — (٦) البخارى

من النفوس محواً ، ولا يعدها فى ذاتها خطيئة و إثماً ؛ إنما يدعو إلى كظمها وضبطها ، لا على أن تستحيل أحقاداً وضغائن فى الصدور ، بل على أن يكون هذا الضبط سبيلا إلى التسامى والتصعيد . وفى هذا السبيل يأخذ النفس البشرية بالترغيب والتحضيض لا بالأمر والتكليف : « ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إن ذلك لمن عزمِ الأمور[1] » . « والكاظمين الغيظَ والعافِين عن الناس[2] » وهكذا يقرن الصبر بالغفران ، و يتبع الكظم بالعفو ، لأن الصبر والكظم إن لم يوجها إلى الغفران والعفو فقد يؤديان إلى الضغينة والحقد ؛ والإسلام يكره الضغينة وينفر من الحقد ، فيوجه و يرغب فى العفو والسماحة ، ليغسل النفوس من الغيظ والغضب ، قبل أن يستحيلا حقداً وضغينة . ويجعل دعاء المؤمنين المحبوب « ولا تجعلْ فى قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا[3] » ويصف أهل الجنة حين يصفهم بالرفعة والسمو فيقول : « ونزعنا مافى صدورهم من غِلٍّ[4] » ويتحدث عن « عباد الرحمن » فيقول : « وعبادُ الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً[5] » أى قابلوا خطاب الجاهلين الجافى الذى لا تهذيب فيه بالتجمل والسماحة .

والإسلام يكره أن تقع الخصومة بين الفرد والفرد ، وأن تسودهما القطيعة ، ولكنه يقدر أن شعور الغضب لا يمكن محوه ، ولا يعده ذنبا بمجرد وقوعه ، ولا يقول كالمسيحية : « من غضب على أخيه باطلا كان مستوجب الحكم » فإذا دعا إلى الصلح والوئام ، أعطى فرصة من الزمن تهدأ فيها الثورة ، وتخمد فيها النزوة ، وترجع فيها النفس إلى الهدوء والسكينة ؛ فيمنح كلا المتخاصمين

---

(١) الشورى ٤٣ (٢) آل عمران ١٣٤ (٣) الحشر ١٠
(٤) الأعراف ٤٣ (٥) الفرقان ٦٣

ثلاثة أيام ، يفثأ فيها غضبه ، وتسكن فيها نفسه ، قبل أن يلزمهما بالسلام بعد الخصام : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام (١) » .

والإسلام يكره الجزع الذى تتهاوى بسببه النفس ، ويتداعى إيمانها بالله واحتمالها المكروه ، لأن الصبر والتماسك مقياس القوة ومقياس الإيمان ، فيقول الرسول الكريم : « ليس منّا من ضرب الخدودَ وشق الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية (٢) » ولكنه لا يعد الحزن والدمع جريمة ، ولا يقهر النفس على السكون الكامل الجامد لأنه فوق الطاقة ، وربما قاد إلى القساوة والتحجر . فها هو ذا محمد رسول الله نفسه تدمع عيناه على ابنه إبراهيم ، ويناجيه وهو مسجى : « يا إبراهيم إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون (٣) » . . إنما الصبر الذى يتطلبه الإسلام هو صبر التأسى والتجمل وتذكر الله ورد الأمر إليه فى الكروب : « ولنبلونَّكم بشىء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (٤) »

وهكذا .. وهكذا .. لا يكلف الإسلام نفساً إلا طاقتها ؛ فلا تنكل عن التكاليف ، ولا تنوء تحتها ، ولا تبقى قلقة ممزقة بين التكليف والطاقة ، بل تنعم بالاستجابة ، وتطمئن بالطاعة ، وتقرّ عيناً بها وتستريح .

---

(١) البخارى — (٢) الخمسة إلا أبا داود

(٣) رواه الأربعة — (٤) البقرة ١٥٥ — ١٥٧

الاطمئنان إلى الله

ويسكب الإسلام فى النفس السكينة والأمن والسلام ، بالركون إلى الله والاطمئنان إلى جواره ، والثقة فى رحمته ورعايته وحمايته . وهى خاصية العقيدة الدينية التى يشارك الإسلام فيها سائر العقائد السماوية . إنما يتميز الإسلام بأن العلاقة فيه مباشرة بين الرب والعبد ، لا يدخل فيها كاهن ولا قسيس ، ولا تتعلق بإرادة مخلوق فى الأرض ولا فى السماء .

فى ظل هذه الصلة المباشرة يحس الفرد أنه يرتكن إلى القوة التى ليس فوقها قوة ، والتى لا تعدلها قوة . وهى أبدا حاضرة ، وفى متناوله أن يركن إليها ويستعينها ، متى أخلص نفسه لها ، فلم يشرك بها فى شعوره قوة ، ولم يحسب لغيرها فى ضميره حسابا : « وقال ربُّكم ادعونى أستجب لكم[١] » .. « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرْشُدُون[٢] » .

وفى ظل هذه القوة تتضاءل قوى الأرض جميعا ؛ وتتساقط أغشية العظمة الكاذبة والجبروت الزائف ؛ ويبدو الأقوياء والأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ والسلطان جميعا ، أقزاما ضعافا ضئالا لا يملكون لإنسان نفعا ولا ضرا : « قل لن يصيبَنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا هو مولانا[٣] » .

فكل قوى الأرض لا تقدر على ذبابة : « وإنْ يسلبْهم الذبابُ شيئا لا يستنقذوه منه .. ضعُفَ الطالبُ والمطلوب[٤] » .

---

(١) غافر ٦٠ (٢) البقرة ١٨٦
(٣) التوبة ٥١ (٤) الحج ٧٣

وفى ظل هذه القوة يأمن الفرد على رزقه ومكانته ، أمنه على حياته وسلامته ، فما من قوة وما من أحد يملك أن يضاره فى رزق ولا فى مركز ولا فى شىء من أمور الدنيا وأمور الآخرة ؛ وإنه لقوى قوى ، وكفء لكل قوة تتصدى له ، لأنه يستمد من تلك القوة الكبرى التى لا ينضب لها معين ، والتى تصرف الكون كله ، وتصرف الجبابرة والسلاطين : « قل : اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتى الملكَ من تشاء ، وتنزعُ الملكَ ممن تشاء ، وتُعزُّ من تشاء ، وتذلُّ من تشاء بيدكَ الخيرُ . إنكَ على كلِّ شىءٍ قدير (١) » .. « إن ينصرْكُمُ اللهُ فلا غالبَ لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصرُكُم من بعده (٢) » .. « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا (٣) » .. « ولله العزة ولرسولِهِ وللمؤمنين (٤) » .. « يأيها الناسُ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم . هل من خالقٍ غيرُ اللهِ يرزقكم منَ السماءِ والأرضِ . لا إله إلا هو فأنى تُؤفَكُون (٥) » .

فإذا تكاتفت قوى الأرض جميعا لتبغى به الأذى ، فما هى بقادرة إلا أن يشاء الله . فإذا شاء الله أن يناله الأذى ، فهنالك حكمة سامية لله ، وهنالك خير أعلى من خير الفرد المحدود ؛ بل هنالك خير لهذا الفرد قد لا يعلمه اللحظة ، ولكن الخالق الأعظم المحيط بالكائنات يعلمه : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسَى أن تُحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ، واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون (٦) » .

وما على الفرد إلا أن يسلم نفسه لله ، وإلا أن يجعل رضى الله غايته ، وإلا أن يجاهد ليجعل كلمة الله هى العليا ، وليحقق إرادة الله فى الأرض ، ولا يستسلم

---

(١) آل عمران ٢٦ (٢) آل عمران ١٦٠ (٣) فاطر ١٠
(٤) المنافقون ٨ (٥) فاطر ٣ (٦) البقرة ٢١٦

يوما ولا يهن ، ولا يأسى على ما فاته فى هذا ولا يتبرم ؛ وكل ما قدمه فى هذا السبيل فهو محفوظ له عند ربه ولن يضيع : « ولا تحسبَنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربهِمْ يُرْزقون[١] » .. « والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالَكم[٢] » .

والله بعد ذلك كله حفى به مكرم له : « ولقد كرَّمْنا بنى آدمَ وحَملناهم فى البَرِّ والبحرِ ورَزقناهم من الطيباتِ وفَضَّلناهم على كثيرٍ ممن خَلَقْنا تفضيلا[٣] » وهو به رحيم وعليه حانٍ . إن أثم قبل توبته وعفا عنه ، أو حاسبه على السيئة سيئة ؛ وإن ضل هداه وأرشده ؛ وإن أحسن ضاعف له الجزاء ؛ وما يحق عقابه الشديد إلا على الذين يلجون فى الغواية : « غافرِ الذنْبِ وقابلِ التوْبِ شديدِ العقابِ ذى الطَّوْلِ[٤] » .. « من جاء بالحسنةِ ، فله عشْرُ أمثالها ، ومن جاء بالسيئةِ فلا يُجزَى إلا مثلَها وهم لا يُظلَمون[٥] »

وبذلك كله تطمئنُّ النفس وتسكن وتثق ، فلا تهزها الأحداث ، ولا تذهب بها الأهوال ، ولا تفزع من شىء ولا تخاف : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبُهم بذكرِ الله . ألَا بذِكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ[٦] » .

الضمانات والتأمينات

وبعد فالإسلام بحسب نظرته الكلية إلى الحياة ودوافعها ودواعيها ، وضرواتها وأشواقها ، وماديانها وروحياتها .. لا يكل الفرد إلى عقيدته الروحية فى الضمير ، بل يعينه عليها بتحقيق أسبابها فى عالم الواقع . فعالم الواقع فى الإسلام إن هو إلا الترجمة العملية لعالم الضمير .

(١) آل عمران ١٦٩ (٢) محمد ٣٥ (٣) الاسراء ٧٠
(٤) غافر ٣ (٥) الأنعام ١٦٠ (٦) الرعد ٢٨

ومن ثم فهو لا يقف عند توفير الضمانات للفرد باطمئنانه إلى الله . بل يشرع لحياته الواقعة ما يكفل الضمانات المطمئنة . فلا يحس الفرد من حوله إلا أمناً وعدلا وكفاية للضرورات .

إن الإسلام يؤمّن الفرد من كل اعتداء . اعتداء فرد مثله ، أو اعتداء حاكم عليه ، فهو يشعر أنه يعيش فى وسط يحبه ولا يعاديه ، ويحرص على ذاته وماله وعرضه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه(١) » .. « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله(٢) » . « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه(٣) »

وليس للحاكم عليه من سلطان إلا فى حدود القانون . القانون الإلهى الذى يخضع له كما يخضع السلطان سواء . والذى لا يستمد من هوى الحاكم ، ولا هوى طبقة ولا جماعة ، ولا يسن ليحقق مصلحة لحاكم أو لطبقة أو جماعة . إنما شرعه الله إله الجميع ومالك الجميع لمصلحة الجميع . والخضوع له خضوع لله ، لا لعبد من عباده ، والضمانات فيه للجميع ، لأنه مشروع للجميع .

وتلك ميزة قيام الدولة على شريعة الدين وقانونه . فالحرية الكاملة من كل عبودية أرضية لن تكون إلا فى ظل مثل هذا القانون . ومادام جماعة من البشر أيا كانوا يشرعون لجماعة من البشر ، فلن تتحقق المساواة المطلقة ، ولن تتحقق المصالح المطلقة . إن الحاكمين سيحسون دائماً أنهم أرفع لأنهم هم الذين يضعون التشريع ؛ وإن القانون سيظل دائماً فى مصلحة طبقة دون طبقة ، ولن

(١) الخمسة إلا أبا داود (٢) أخرجه الستة إلا النسائى

(٣) أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى .

يحقق مصالح الجميع . . هنالك حالة واحدة يخضع فيها الفرد للقانون وهو شاعر بعزته كاملة وحريته كاملة ومصلحته كاملة .. حالة استمداد التشريع كله من شريعة الله ، الذى لا حاكم إلا ه ، ولا مسيطر سواه ؛ ولا مصلحة له فى نصرة طبقة على طبقة ، ولا إخضاع طبقة لطبقة . وعندئذ فقط يطمئن الفرد إلى العدل المطلق ويستريح . وعندئذ فقط يطامن الحاكم من كبريائه التى يستمدها من سلطة التشريع ؛ ويحس أنه لا يملك شيئاً إلا أن ينفذ القانون الإلهى ، الذى فرض عليه وعلى كل فرد سواء .. وهذا هو التحرر الكامل الصحيح .

والإسلام يوفر للفرد فى قانونه هذا كل ضماناته : يحفظ عليه حياته وماله وعرضه ، فلا تمس إلا بحق الله فيها ؛ ويحميه من السخرية منه أو التجسس عليه أو اغتيابه أو أخذه بالظنة : « يا أيها الذين آمنوا لا يَسخرْ قومٌ من قومٍ عَسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ منْ نساءٍ عَسى أن يكنَّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابَزُوا بالألقاب . بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ . ومنْ لم يتُبْ فأولئك هم الظالمونَ . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعضَ الظّنِّ إثمٌ ، ولا تجسَّسُوا ، ولا يَغْتَبْ بعْضُكم بعضاً . أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميْتاً ؟ فكرِهْتموه . واتَّقُوا الله إن الله توَّابٌ رحِيم [(١)] »

ويضمن له حرية داره وحرمتها فلا يتسورها عليه أحد ، ولا يدخلها بغير إذنه أحد : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتِكم حتى تستأنسوا وتُسَلِّموا على أهلها . ذلكم خيرٌ لكم لعلَّكم تذَكَّرون . فإنْ لم تجدوا فيها

---

(١) الحجرات ١١ و ١٢

أحداً فلا تدخلوها حتى يُؤْذنَ لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، واللهُ بما تعملون عليمٌ[1] »

حتى الجريمة لا يجوز إثباتها بتسور البيوت والتجسس على الناس فى مأمنهم . وقد حدث أن مر عمر بن الخطاب فى إحدى جولاته الليلية ببيت سمع فيه صوت رجل وامرأة لعله رابه ، فتسور الحائط لينظر ، فإذا رجل وامرأة ومعهما زق خمر . فقال عمر : يا عدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته ! فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ! أنا عصيت الله فى واحدة وأنت فى ثلاث . فالله يقول : « ولا تجسسوا » وأنت تجسست علينا . والله يقول : « وأْتوا البيوتَ من أبوابها » وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه . والله يقول : « لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وأنت لم تفعل .

وهكذا لم يجد عمر أنه يملك عقابه ، فاستتابه !

وبمثل هذه الضمانات يكفل الإسلام للفرد طمأنينته وحريته وحرماته جميعا . فإذا اعتدى عليها معتد فالقصاص حاضر أيا كان هذا المعتدى ، ولو كان الحاكم الأعلى ، فما ميز الإسلام فى قانونه ولا فى واقعه التاريخى — حينما كان يحكم — بين خليفة أو أمير وبين فرد من عامة المسلمين فى القصاص . محمد رسول الله كان يقيد من نفسه ؛ وعمر بن الخطاب يدع ابن المصرى من عامة الشعب يضرب « ابن الأكرمين » ابن عمرو بن العاص حاكم مصر حتى يرضى ؛ وعلى بن أبى طالب يخاصم نصرانياً سرق درعه إلى قاضيه شريح ، فيحكم القاضى ضده لأنه لا يملك بينة على السارق ، فيبسم الخليفة ويرضى .

---

(١) النور ٢٧ و ٢٨

وهكذا وهكذا مما لا يتسع المجال لتفصيله هنا وحسبنا منه الإشارة[1]

ثم يضمن الإسلام للفرد رزقه فى عنق الجماعة : يضمنه بالعمل والنصفة فى الأجر عند القدرة ، وبالضمانات الاجتماعية عند التعطل وعند العجز وعند المرض وعند الشيخوخة ؛ ويكفله للطفل رضيعاً وناشئاً حتى يقدر على العمل . وسنفصل الحديث فى هذه الضمانات كلها عند الكلام عن سلام المجتمع ، فحسبنا هنا ما يشير إلى ضمانات الفرد التى تدخل السكينة إلى نفسه ، والاطمئنان إلى روحه فى واقع الحياة العملية ، بعد السكينة الروحية التى يجدها فى العقيدة الإسلامية .

وإن الإسلام ليوفر أسباب السلام كلها فى قرارة الضمير ؛ وشعاره فى هذا المجال ما أعربنا عنه فى أول الفصل : « لاسلام لعالم ضمير الفرد فيه لا يستمتع بالسلام » .

---

(١) يراجع فصل « من الواقع التاريخى » فى كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام »

سلام البيت

البيت مثابة وسكن ؛ وفى ظله تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ؛ ومن سماته تأخذ سماتها وطابعها ، وفى جوه تتنفس وتتكيف . . وكم من أحداث وحوادث وقعت على مسرح المجتمع ، وأثرت فى سير التاريخ ، تكمن بواعثها الخفية فى مؤثرات بيتية .

والفرد الذى لا يستمتع فى بيته بالسلام ، لن يعرف للسلام قيمة ، ولن يتذوق له طعماً ، ولن يكون عامل سلام وفى أعصابه معركة ، وفى نفسه قلق ، وفى روحه اضطراب .

والإسلام يتجه إلى بذر بذور السلام فى البيت ، فى ذات الوقت الذى يتجه فيه إلى الضمير الفردى ، وإلى المجتمع الدولى .. فكلها حلقات متضامنة ، وفيما بينها ترابط واتصال .

الرباط المقدس

يبدأ الإسلام أولا بتصوير العلاقة البيتية تصويرا رفافا شفيفا ، يشع منه التعاطف ، وترف فيه الظلال ؛ ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير : « ومن آياتِه أنْ خلق لكم من أنفُسِكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة[1] » .. « هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن[2] » فهى صلة النفس بالنفس ، وهي صلة السكن والقرار ، وهى صلة المودة والرحمة ، وهى صلة الستر

---

(١) الروم ١ (٢) البقرة ١٨٧

والتجمل . وإنك لتحس فى الألفاظ ذاتها حنوا ورفقا ، وتستروح من خلالها نداوة وظلا . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التى يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنسانى الرفيق الوثيق . ذلك فى الوقت الذى يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها ، بما فيها امتداد الحياة بالأولاد ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ، ويعترف بطهارتها وجديتها ، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها ، ذلك حين يقول : « نساؤكم حرثٌ لكم[1] » فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

يحيط الإسلام هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، أو هذه المثابة ، بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام الكلية ، فإنه لا يكتفى بالإشعاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية ، والضمانات التشريعية .

فأولا : لابد فى هذا الارتباط من الرضى والاستئذان ، فلا تزوج المرأة بغير إذنها ورضاها . ولابد فيه من الرؤية ليكون هذا الرضى جديا وقائما على حقيقة ، ومنبعثا من شعور : « فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما[2] » .

وثانيا : لابد فيه من علانية وإشهاد ، فلا يتم فى السر والخفاء كما تتم الجريمة ؛ ولابد من إيجاب وقبول صريحين يشهد عليهما الشهود ، فلا يبقى ظل من شك أو غموض فى قيام هذا الارتباط ، حتى ليستحب دق الطبول لهذه المناسبة زيادة فى الإعلان !

وثالثا : لابد فيه من نية التأبيد لا التوقيت ؛ فإذا نوى أو صرح بأن يكون هذا الزواج موقوتا بزمن لم ينعقد . لأن هذا الارتباط مقصود به السكن

---

(١) البقرة ٢٢٣

(٢) من حديث عن المغيرة بن شعبة ذكر صاحب مصابيح السنة أنه من الحسان .

والاستقرار ، مقصود به أن يركن إليه الزوجان فى اطمئنان ، وأن يبنيا فى ظله الحياة وهما واثقان آمنان .

ولكى يهيىء الإسلام للبيت جوه ؛ ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها .. أوجب على الرجل النفقة وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيىء به للمثابة نظامها وعطرها و بشاشتها . فالأم المكدودة بالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المشتتة الطاقة فيه .. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها . و بيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات ، وما يشيع فيها ذلك الأرج الذى يشيع فى البيت . فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امرأة ، وأرج البيت لن يفوح إلا أن تطلقه زوجة ، وحنان البيت لن يشيع إلا أن تتولاه أم . والمرأة أو الزوجة أو الأم التى تقضى وقتها وجهدها وطاقتها الروحية فى العمل لن تطلق فى جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال .

إن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرود والضلال .

وفى سبيل الاستقرار البيتى وقطعا لدابر الفوضى والنزاع فيه ، جعل الإسلام القوامة للرجل فيه ، وذلك تمشيا مع سياسة التنظيم التى يحرص عليها الإسلام حرصا شديدا ، والتى جعلت الرسول يأمر الرجال أن يؤمروا عليهم أحدهم حتى لو خرج اثنان فى أمر فأحدهما أمير .

إن توحيد القيادة ضرورى لأمن السفينة ، وفى سفينة البيت لابد من قيادة ، تحتمل التبعة وتحفظ النظام أن ينتكث ، وما فى هذا من شذوذ على القاعدة الإسلامية العامة فى عالم الرجال أيضا . فأى الزوجين كان المنطق كفيلا بأن يسلمه القيادة ؟ المرأة المشبوبة العواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى فى رعاية الأطفال وتعطير جو البيت بالجمال ؟ أم الرجل الذى كلفه الإسلام الإنفاق لتتخلو المرأة إلى عبئها الضخم ، وتنفق فيه طاقتها ووسعها ؟ لقد جعل له الإسلام القوامة ، تحقيقا لنظامه المطرد أن تكون فى كل عمل قيادة وقوامة ، واختاره لأنه بخلقته وتجاربه أصلح الاثنين لهذه الوظيفة .

وهكذا حين تعرض المسألة فى بساطتها هذه وفى وضوحها ، ينكشف ذلك اللغط الهاذر الذى تلوكه ألسنة الفارغين والفارغات فى هذا الزمان حول هذا النظام ، ويتجلى أن فراغ الحياة وفراغ القلوب وفراغ العقول ، هو الذى ينشىء ذلك اللغط ، ويجعله موضوع جدل ومادة حديث . وهو نظام قصد به الإسلام أن يكون حلقة من حلقات السلام فى البيت ، وضمانة للاستقرار فيه والنظام . ولكن فى عهود الانتكاس ، وفى فترات الفراغ من جديات الأمور ، لا يبقى للمجتمع ما يحفل به إلا الفتات والقشور .

الاختلاط والتبرج

وفى سبيل السلام البيتى ، وإشاعة الثقة واليقين فيه كان النهى عن التبرج ، وكان التحرج من الاختلاط ، وكان الأمر بالحشمة والتحفظ ، حتى لأمهات المؤمنين فى عهد الرسول : «يا أيها النبىّ قل لأزواجك وبناتك ونساءِ المؤمنين

يُدْنين عليهن من جلا بيبهن (١) » .. « قلْ للمؤمنين يَغُضُّوا منْ أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم إنَّ الله خبيرٌ بما يصنعون . وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهنَّ ويحفظْنَ فروجَهُنَّ ولا يُبدين زينتهن إلا ماظهر منها ، ولْيَضرِبْنَ بِخُمُرِهنَّ على جيوبهن ، ولا يُبدين زينتهن إلا لِبُعُولتهن ، أو آبائهن أو آباءِ بعولتِهن ، أو أبنائِهن ، أو أبناء بعُولتهن ، أو إخوانِهنَّ ، أو بنى إخوانِهنَّ أو بنى أخَواتِهن ، أو نسائِهن ، أو ما ملَكتْ أيمانُهن ، أو التابعين غيرِ أُولِى الإرْبَةِ منَ الرجالِ أو الطِّفْلِ الذين لم يَظهروا على عوراتِ النساء ، ولا يضربن بأرجُلِهِنَّ لِيُعلمَ ما يُخفين مِن زينَتِهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٢) »

إن من حق الرجل كما أن من حق المرأة أن يطمئن كلاهما إلى رفيقه ، وألا يتعرض للإغراء الذى قد تنحرف معه عواطفه عن شريكه ، إن لم يقده الانحراف إلى الانزلاق والخطيئة ، مما يهدد ذلك الرباط المقدس ، ويطيِّر عن جوه الثقة الكاملة والاطمئنان .

هذا الانحراف فى العواطف ، والانزلاق إلى ما هو أبعد ، واقع كل يوم وكل لحظة فى المجتمعات التى ينطلق فيها الاختلاط ، وتنطلق فيها المرأة متزينة متبرجة ، وتنطلق معها شياطين الفتنة والإغراء . وهذر فارغ يكذبه الواقع ما تلهج به ألسنة الببغاوات هنا وألسنة الشاردين هناك من أن الاختلاط يهذب المشاعر ، ويصرف الطاقات المكبوتة ، ويعلم الجنسين آداب الحديث وآداب المعاشرة ، ويزود بالتجربة التى تصون من الزلل . وأن الاختيار القائم على

---

(١) الأحزاب ٥٩ (٢) النور ٣٠ و ٣١

التجربة الكاملة — حتى عنصر الخطيئة — كفيل بأن يمسك الشريكين كلا لصاحبه ، لأنه إنما اختاره عن رضى ، وبعد تجربة ...

أقول هذر يهدمه الواقع ، واقع الانحرافات الدائمة والتحولات المستمرة فى العواطف ، وتحطيم البيوت بالطلاق وغير الطلاق ، وانتشار الخيانات الزوجية المزدوجة فى تلك المجتمعات .

إن التجربة الكاملة لا تمنع أن تبرز فى حياة الزوج أو الزوجة بالاختلاط الطليق شخصية أخرى أقوى وأكمل وأشد جاذبية . فماذا يقع حينذاك ؟ إما أن ينزلق الزوج أو تنزلق الزوجة استجابة لهذا الهوى الجديد . وإما أن يقاوم هو أو هى احتفاظاً بالواجب ، فيقع فى القلق والحيرة والاضطراب ... وكلاهما طريق لا يقود إلى سلام فى القلب ، ولا إلى طمأنينة فى الروح ، ولا إلى أمن فى البيوت .. ودع عنك تدلى الإنسانية فى الفاحشة ، وارتكاسها فى البهيمية ، وانتكاسها إلى مثل فوضى الحيوان ونزواته المطلقة العنان !

فأما خرافة التهذيب والتصريف النظيف باللقاء وبالحديث .. فليسألوا عنها نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية الأمريكية ، وقد بلغت فى إحدى المدن ٤٨ فى المائة . وأما البيوت السعيدة بعد زواج الاختلاط المطلق والاختبار الكامل فليسألوا عنها نسبة البيوت المحطمة بالطلاق فى أمريكا ، وهى تقفز فترة بعد فترة كلما ازداد الاختلاط وكلما تم الاختبار . وهذه النسبة المخيفة تمضى فى هذه الخطوط .

التـــاريخ	النسبة فى المائة
سنة ١٨٩٠	٦ ٪
« ١٩٠٠	١٠ ٪
« ١٩١٠	١٠ ٪
« ١٩٢٠	١٤ ٪
« ١٩٣٠	١٤ ٪
« ١٩٤٠	٢٠ ٪
« ١٩٤٦	٣٠ ٪
« ١٩٤٨	٤٠ ٪

والبقيـة تأتى من البيوت المحطمة تحت مطارق الشهوات الجامحة ، والرغبات المتقلبة ، والقلق الجانح ، الذى يثيره تقلب العواطف فى المجتمع المختلط ، الذى تلوح فيه للأزواج والزوجات مزايا جديدة فى نساء جدد ورجال ، فينفلت هؤلاء وهؤلاء إلى صيد جديد ، وتتأرجح البيوت فى مهاب الريح ، كلما لمح زوج أو لمحت زوجة بارقة لامعة فى شخصية جديدة ، كما لو كان الزوج أو كانت الزوجة قطعة أثاث أو رباط عنق أو زيا جديدا فى عالم « المودات » !

لقد آن أن تراجع البشرية تلك النظريات الخيالية الخاوية التى كانت تقول : إن الاختلاط تصريف جزئى ملطف نظيف ، وأن التجربة تقود إلى الاختيار ، وأن الاختيار طريق الاستقرار . . .

إنها نظريات تبـــدو منطقية ، ولـكن التجربة الواقعية التى بلغت فى أمريكا بالذات غايتها ، كفيلة بأن تسخر من هذا المنطق الظاهرى البراق !

فلم يؤد الاختلاط إلى تصريف نظيف ، إنما أدى إلى بهيمية كاملة تطيع النزوات الجسدية وتلبيها بلا حد ولا قيد . ولم تؤد التجربة الكاملة والاختيار المطلق إلى تماسك فى البيوت ، ولا إلى استقرار وثبات ، إنما أدى إلى تفكك دائم وطلاق متزايد ، وجوع مستمر وسعار !

إن التجربة الأمريكية فى هذا المجال لتجبه آراء فرويد وأمثاله بالتكذيب . إنها لتصرخ فى وجه من يريد أن يسمع بأن الاختلاط الدائم مدعاة إلى تهييج دائم ، إما أن ينتهى إلى ذروته وغايته فينطفىء مؤقتاً ريثما يعود إلى الاشتعال ، وإما أن لاينتهى إلى هذه الغاية العملية المادية ، فيؤدى إلى الضغط العصبى وما وراءه من أمراض .

ولقد كان الإخلاص العلمى وحده كفيلا بإعادة النظر فى هذه النظريات كلها على ضوء التجربة الأمريكية الواقعية ، التى تشهد بأن الدوافع الجسدية من القوة والعمق بحيث لا يطفئها تصريف الاختلاط ، ولا حتى تصريف الارتواء . فأنت لا تسكت جوعة المعدة بشم رائحة الشواء ، بل تزيدها تشهياً ؛ وأنت لا تسكت هذه الجوعة كذلك بالأكلة الدسمة المتخمة إلا إلى حين ، تفيق بعدها وهى أشـــد تشهياً وأطلب للأكلات الدسمات . وما جوعة الجسد إلا كجوعة المعدة كلتاهما دائمة . وقد شاءت لها القدرة الخالقة هذا الدوام لأنها تنوط بها مهمة دائمة فى امتداد الحياة . وهذا هو الذى تصرخ به التجربة الأمريكية فى وجوه النظريات والخيـال !

ولقد كان الإسلام يقدر هذا كله ، وهو يشير بالحشمة ، ويتحرج من الاختلاط ، ويأمر بغض الأبصار ، ويحرم التبرج . لقد كان يريد للضمائر أن تقر ،

والأرواح أن تطمئن ، وللبيوت أن تهدأ . . لقد كان يريد السلام للعش الذى ليس ملكا للزوج وليس ملكا للزوجة ، فهما فيه راعيان للفراخ الزغب ، أمينان على الطفولة النابتة ، حارسان للحياة المتفتحة فى مثابة الأمان .

الحـــدود

وإن الإسلام ليكره أن تشيع الفاحشة فى المجتمع : « إن الَّذين يُحبُّون أن تَشيعَ الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ[(١)] » . « ولا تَقْربوا الزِّنى إنه كانَ فاحِشةً وساءَ سبيلا[(٢)] » . ولشيوع الفاحشة أثره الفاحش فى تحطيم أسس المجتمع ، ولكن الذى يعنينا فى هذا الموضع أثره فى أمن البيت وسلامه ، وحرص الإسلام على هذا السلام .

إنه يبدأ بأسباب الوقاية على نحو ما أسلفنا : يأمر بالحشمة ويحرم التبرج ويتحرج من الاختلاط ويتوقى من الفتنة ؛ وينهى عن الفاحشة ويقرنها بالكفر والشرك ؛ ويحاول تيسير الإحصان بالزواج عند الاستطاعة حتى ليدعو المسلمين إلى مساعدة من يبتغى الزواج بالمال . فإذا تعذر فهو يدعو إلى الصوم تلطيفاً لفورة الجسد : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء[(٣)] » . وهو يحبب فى الرياضة والفروسية ملاحظاً هذا المعنى بجانب غايات الفروسية الأخرى . . .

وما من شك أن التربية الإسلامية المعتدلة المتناسقة ؛ وتوقى مواضع الإثارة وأسباب الفتنة بتحريم التبرج ، والتطرى فى الحديث ، والتحرج من

---

(١) النور ١٩ (٢) الإسراء ٣٢ (٣) البخارى

الاختلاط فى غير ضرورة قاهرة ، مع أخذ الجسم بالرياضة وبالصوم ، والتبكير بالزواج بمجرد الاستطاعة . . مامن شك أن هذه كلها عوامل إيجابية فى ضبط النفس والجسد إلى حين .

والببغاوات هنا والشاردون هناك يقولون : إن هذا الضبط لابد مؤدّ إلى العقد النفسية . ذلك أنهم لايتخيلون صورة للمجتمع إلا تلك الصورة القذرة ، صورة الشبان الهائجين محتكين بالفتيات الفائرات ، صورة الأفخاذ والنهود عارية بارزة ، صورة النظرات جاهرة فى العيون والشهوات ناضجة فى الشفاه . تدفعها كلها وتؤججها مناظرُ الأفلام الداعرة ، وصور الصحف المجرمة ، وأصوات المخنثين والمخنثات فى الإذاعة . ومن وراء ذلك كله الترف والفراغ فى جانب ، والعوز والانحلال فى جانب . ومن حول ذلك كله تجار الأعراض ومخانيث القوادين .

. . . إن مجتمعاً هذه صورته ليتعذر فيه الضبط ، لأن عوامل الفتنة كلها فيه هائجة صاخبة جامحة طليقة . وإن مجتمعاً هذه صورته ليعز فيه على النفوس القرار ، ويعز فيه على البيوت السلام . ولكن المجتمع الإسلامى شىء مغاير لهذا كله من الأساس . إنه مجتمع يحارب الترف ويحرّمه ، ويحارب العوز ويسده ، ويحارب الاختلاط والتبرّج ، ويحارب التخنث والتأنث ؛ وهو بعد ذلك كله يملأ فراغ الحياة بهموم كبار فى سبيل الله وفى سبيل الإنسانية ؛ ويملأ فراغ الوقت بالعمل ، فلايوجد فيه أولئك الفارغون والفارغات الذين لايجدون ما يملأون به حياتهم ، ويصرفون فيه طاقاتهم ، إلا الشهوات والنزوات ، وإلا الترف الفاجر الداعر فى الحفلات والسهرات .

إن الإسلام لايدع كئوس الخمر تهيج الدم فى العروق ، ونهود الخليعات وشفاههن الظامئة ونظراتهن الفاجرة تهتف بالرجال ؛ ثم يكلف الرجال أن يضبطوا نزواتهم ويكبحوا شهواتهم ! . . كلا. إنه يأخذ الأمر من أطرافه جميعاً ، ويأخذ على أسباب الفتنة الطريق منذ الخطوة الأولى ؛ ثم يكلف الناس ما فى طوقهم حينذاك ، بدون مشقة وبدون إعنات .

فإذا وقعت الفاحشة بعد ذلك ، ففى سبيل سلام البيت وفى سبيل تماسك المجتمع يأخذ الأمر بعقوبات رادعة يوقعها على الفاحشين والفاحشات : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بهما رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائفةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِين . الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُها إِلّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِين »[1] . وقد عاقب النبىّ صلى الله عليه وسلم بالرّجم لا بالجلد ؛ وعاقب به الخلفاء بعده .

وتسمع من الببغاوات هنا ومن الشاردين هناك أنها عقوبة قاسية . . قاسية ! أما تحطيم البيوت ، وقلق الضمائر ، وتدليس الأنساب ، فما هى بقاسية . قاسية لأن المترفين والمترفات ، والداعرين والداعرات ، يحسون — وهم يصفونها بالقسوة — وقع السياط على جلودهم الناعمة المترهلة ، ونقح الأحجار فى أجسادهم اللينة الرخصة . إنهم يدافعون عن أنفسهم وهم يتشدقون باسم القوانين المتحضرة ؛ وينعتون حدود الإسلام بالقسوة أو بالهمجية . وهم الهمج المنتكسون إلى حياة البهيمية الأولى .

---

(١) النور ٢،٣

والإسلام مع ذلك لا يقضى بهذه العقوبة الرادعة إلا فى حالات التأكد المطلق الذى لا شبهة فيه ، وفى حالات الإحصان بالزواج حيث تنتفى الحاجة القاهرة ، أما غير المحصنين وغير المحصنات فعقوبتهم أخف وليست تتجاوز الجلد .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ادرأوا الحدود بالشبهات[1] » لأن الجريمة التى تقوم عليها شبهة ، ليست هى الجريمة الواضحة الظاهرة المتبجحة ؛ وهى أولى بالعطف والتخفيف ، وفى التعزير ما يكفى لغير المجرم المتبجح بجريمته حتى ليراها الشهود — وهم فى حالة الزنا أربعة — يتأكدون جميعاً من وقوع الفعل بلا شك فى نفس واحد منهم ولا مطعن فى عدالته ، وإلا فلا رجم ولا جلد .

وإذا عرفنا أن تسور الأبواب واقتحام البيوت الخاصة ممنوع ، فإن ضبط هذه الجريمة ورؤية الشهود لها على الوضع الذى يشترطه الإسلام لإقامة الحد ، لا يكون غالباً إلا فى حالات التهتك الفاضحة ، والتبجح بالجريمة فى الأماكن العامة . وتلك إشاعة للفحش ، واستهتار بالكرامة والعرض ، لا توصف معهما العقوبة بالقسوة عند ذوى الفطر المستقيمة والطباع السليمة .

ومنعاً لشيوع الاتهام بالحق وبالباطل يعاقب الإسلام بالجلد وبالحرمان من الثقة وإسقاط الشهادة كل من يرمى امرأة محصنة بالتهمة ولا يأتى بشهود أربعة : « والذين يَرْمُونَ الْمُحصَنَاتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداءَ فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون . إلاَّ الذين تابوا من بعدِ ذلك وأصلحوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ[2] » وذلك كى لا يشيع الاتهام ويشيع

(١) فى مسند أبى حنيفة للحارثى

(٢) النور ٤ ، ٥

القلق فى النفوس والبيوت ، وتشيع قالة السوء فى المجتمع فتفقد الثقة ويحل مكانها التشكك والخوف : « لا يحب اللهُ الجهرَ بالسوء من القولِ إلا مَنْ ظُلِمَ وكان اللهُ سميعاً عليما (١) »

فإذا جاءت التهمة على لسان زوج ، ولم يكن له شهود ، فإن الإسلام يقدر ظروف البيوت وتعذر الشهود ، فيعفيه من العقوبة إذا هو شهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، وشهادة خامسة بأن يلعنه الله إن كان من الكاذبين . ويقيها هى من العقاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين وشهادة خامسة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين : « والذين يَرْمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسُهم ، فشهادة أحدهم أربعُ شهاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسةُ أن لعنةَ اللهِ عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذابَ أن تشهد أربعَ شهاداتٍ باللهِ إنه لمنَ الكاذبين ، والخامسةَ أن غضبَ اللهِ عليها إن كان من الصادقين (٢) » .

الطــــلاق

والطلاق ؟ إنه صمام الأمن فى هذه الخلية . إنه أبغض الحلال إلى الله . ولكنه مكروه تبيحه الضرورة ، تحقيقاً للسلام الحقيقى فى جو البيت حين يعزّ السلام عن كل طريق سواه . وإنه لاعتراف بالمنطق الواقع الذى لا تجدى فى إنكاره حذلقات المتحذلقين ، ولا تدفع وجوده كذلك أحلام الشعراء . إن هنالك حالات واقعية تتعذر فيها الحياة الزوجية ، فإمساك الزوجين على هذا الرباط مرغمين لا يؤدى إلى خير ، ولا ينتهى إلى سلام .

---

(١) النساء ١٤٨ (٢) النور ٦، ٧

والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدس فيفصمه لأول وهلة ، ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، ويستمسك به فى استماتة ، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس والمحال .

إنه يهتف بالرجال : « وعاشِروهنّ بالمعروفِ ، فإنْ كرِهتُموهنّ فعسى أن تَكرَهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيرا[1] » . فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى فى حالة الكراهية ؛ ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فما يدريهم أن فى هؤلاء النسوة المكروهات خيرا ، وأن الله يذخرلهم هذا الخير فلا يجوز أن يفلتوه ، إن لم يكن ينبغى لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا فى استحياء الانعطاف الوجدانى واستثارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته .

فإذا تجاوز الأمر مسألة الكره والحب إلى النشوز والنفور، فليس الطلاق أول خاطر يهدى إليه الإسلام، بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق يحاوله الخيرون : « وإن خفتمْ شِقاقَ بينِهما فابعثوا حَكماً من أهلِه وحَكَماً من أهلِها ، إن يُريدا إصلاحا يوفقِ اللهُ بيْنَهما . إن الله كان عليما خبيرا[2] » .. « وإن امرأة خافت من بعلِها نشُوزًا أو إعراضا فلا جُناحَ عليهما أن يُصْلِحا بينهما والصلح خير[3] » .

فإذا لم تجد هذه الوساطة ، فالأمر إذن جد ، وهنالك مالا تستقيم معه هذه الحياة ، ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجين على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة ، يزيدها الضغط فشلا . ومن الحكمة التسليم بالواقع ، وإنهاء هذه الحياة

---

(١) النساء ١٩ (٢) النساء ٣٥ (٣) النساء ١٢٨

على كره من الإسلام ، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق . ولعل هذه التفرقة تثير فى نفس الزوجين رغبة جديدة لمعاودة الحياة ، فكثيرا ما نتفقد الشىء بعد أن نفقده ، ونرى حسناته عندما نحرمه . والفرصة لم تضع : « الطلاقُ مرّتان فإمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان[1] » وهناك فترة العدة فى حالة الدخول بالزوجة ، بعد الطلاق الأول ، ثلاثة أشهر على وجه التقريب إن لم يكن هناك حمل ، وحتى الوضع إن كان . وعليه أن ينفق عليها فى هذه الفترة ولا يقتر فى النفقة . وفى خلالها يجوز له إن كان قد ندم أن يراجع زوجه ، وأن يستأنفا حياتهما بلا أى إجراء جديد ، فهو طلاق رجعى والحياة الزوجية قابلة للاستئناف بأيسر الأسباب .

فإذا تركت مدة العدة تمضى دون مراجعة ، صار الطلاق بائنا . ولكن الفرصة بعد لم تضع ، وفى استطاعتهما أن يستأنفا هذه الحياة متى رغبا ، ولكن بعقد جديد .

وتلك هى التجربة الأولى ، وهى تكشف لكلا الزوجين عن حقيقة عواطفهما ، وعن جدية الأسباب التى انفصلا بسببها . فإذا تكررت هذه الأسباب أو جدّ سواها ، واندفع الزوج إلى الطلاق مرة أخرى ، فعندئذ يحرم فرصة المراجعة التى كانت له فى المرة الأولى ، ويقع الطلاق بائنا منذ أول لحظة فلا سبيل له الآن إلى استئناف تلك الحياة باليسر الذى كان أول مرة . ولكن الفرصة لم تفلت إلى الأبد ، فأمامهما — إذا وجدا أن الحياة مستطاعة من جديد ، و إذا كشفا فى مشاعرهما عن بقية من ود ، أو عن دفين من حب —

---

(١) البقره ٢٢٩

أن يعاودا هذه الحياة . ولكن بعقد ومهر جديدين فى هذه المرة ، كيلا يكون الأمر عبثا ولعبا ، وكى يعلم الزوج أن الأمر جد ، وأن له تكاليف ، فيفكر ويتردد ويتحرج قبل أن يقذف بالكلمة الكريهة لسبب طارىء أو غضب عارض .

فأما إذا كانت الثالثة ، فالعلة إذن عميقة ، والمحاولة غير مجدية . ومن الخير له ولها أن يجرب كل منهما طريقه ؛ ومن الخير كذلك أن يتلقى الزوج إن كان عابثاً أو متسرعاً نتيجة عبثه أو تسرعه : « فإنْ طَلَّقها فلا تحلُّ له مِنْ بَعْدُ حتى تَنكحَ زوجاً غيره[1] » لا على طريقة « المحلل » الشائعة ، والتى لا يعترف بها الإسلام ، ولا تقرها شريعته . ولكن على أن تتزوج زواجاً حقيقياً جديداً ، منوياً فيه التأبيد لا التوقيت . فإذا حدث لأمر ما أن طلقت من زوجها الجديد أو مات عنها ، فلزوجها الأول أن يراجعها وأن يستأنفا معاً رحلتهما فى الحياة .

ولا يجوز أن ننسى فى هذا المجال توصيات الإسلام فى كل خطوة وفى كل مرحلة بحسن المعاملة وتوفية النفقة ، تأليفاً للقلوب النافرة فى فترة العدة ، فقد يعود إليها ودها ، وتجبر شعوبها ، وتستأنف الحياة صافية من جديد : « وإذا طَلَّقتمُ النساءَ فبلغن أجلَهن فأمسِكوهن بمعروفٍ أو سرِّحوهن بمعروف . ولا تُمسكوهنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا ، ومن يفعلْ ذلك فقد ظلم نفسه[2] » .. « يا أيها النبىُ إذا طلَّقتمُ النساءَ فَطَلِّقوهنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، وَأَحْصوا العِدَّةَ ، واتَّقُوا الله ربَّكم ، لا تُخرِجُوهُنَّ مِنْ بيوتِهِنَّ ، ولا يَخرُجنَ إلاّ أنْ يأتينَ بِفاحِشَةٍ

(١) البقرة ٢٣٠ (٢) البقرة ٢٣١

مُبينَّة . وتلك حُدُودُ الله فلا تَعْتَدُوها . ومَنْ يَتعدَّ حُدُودَ الله فقدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لا تدرى لعلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذلك أمراً . فإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فَأمْسِكُوهنَّ بِمَعْرُوفٍ أو فارِقُوهنَّ بمعْرُوفٍ ، وأشهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ منكم وأقيموا الشهادةَ لله . ذلِكمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخِرِ ؛ ومَنْ يَتَّقِ الله يَجعلْ لَهُ مَخْرَجاً(١) » .

ثم لا يجوز أن ننسى كذلك أن للمرأة أن تشرط أن تكون العصمة بيدها ، فيكون لها من الحق ما للرجل فى هذا المجال عند الاقتضاء .

ذلك هو الطلاق فى الإسلام .. صمامة أمن لا تنطلق إلا حيث لا يكون مفر من انطلاقها ؛ ومحاولة بعد محاولة فى التوقى والاستصلاح والمراجعة ؛ وفرصة بعد فرصة تكشف للزوجين عن حقيقة مشاعرهما ، وعن أخطائهما فى السلوك أو أخطائهما فى التقدير ، أو أخطائهما فى الشعور .

ففيم إذن تلهج حناجر عابثة جاهلة بنقد هذا النظام أو عيبه أو تشويهه ؟

يقولون : إنه نظام يدع المرأة دائماً مهددة بكلمة تخرج من شفتى رجل !

أهو كذلك فى حقيقته الإسلامية ؟ أم إنه صار كذلك بانفلات القلوب من عروة الإسلام ، وانفلات المجتمع من نظام الإسلام ، وانفلات الحكم من يد الإسلام ؟

إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق . وإنه لمكروه تبيحه الضرورة . فإذا فسدت القلوب ، وانحلت الأخلاق ، ورخصت الروابط ، وفشا الاستهتار ، فالمجتمع الفاسد هو المسؤول لا ذلك النظام البصير الحكيم . والعلاج لا يكون

---

(١) الطلاق ١ ، ٢

بتقييد المباح وتحريم الحلال ؛ ولكن يكون برد الحكم والتنظيم والتربية إلى الإسلام وعندئذ يصوغ الإسلام المجتمع كله وفق تعاليمه. فتشريعات الإسلام مشروعة لعالم يحكمه الإسلام، ولنظام يقوم على الإسلام، ولمجتمع رباه الإسلام.

دعوا الإسلام يحكم، فيربى النفوس، ويوقظ الضمائر، ويضرب على أيدى العابثين والمستهترين، ويحقق إرادة الإسلام كلها ومن بينها شرائع الإسلام.

على أننى أفترض أن قد تم تقييد الطلاق، فى مجتمع كمجتمعنا الزائغ المريض. فما الذى تبتغيه المرأة بنفسها وبكرامتها؟ أفتريد أن يلفظها الرجل من قلبه فيمسكها القانون عليه؟! أفتريد أن يعبث بطلاقها فلا تطلق، وتبقى على العبث بها مقحمة فى الدار؟! أية كرامة تلك التى يُريدها المرأة نساء فارغات عابثات، أراد الله لهن الكرامة فأبينها وانطلقن شاردات رخيصات؟

إن الزواج رابطة مقدسة، لا تقوم إلا على الرضى والقبول، ولا تستمر إلا بالرضى والقبول. ونظام الطلاق هو الكفيل ببقائها قائمة على أصولها الكريمة. فإذا انفصمت عراها بعد هذا كله، فمعنى انفصامها أنها غير صالحة للبقاء، وأنه خير للزوجين حينئذ وأكرم أن يركنا إلى حياة أخرى جديدة: « وإنْ يتفرقا يُغْنِ اللهُ كلاً مِن سَعَتِه، وكان اللهُ واسعاً حَكيماً(١) »

---

(٢) البقرة ١٣٠

تعدد الزوجات

ورخصة تعدد الزوجات . . إنها هى الأخرى ضرورة تؤدى وظيفة صمام الأمن فى مجالها كضرورة الطلاق عند الاقتضاء . وهى فى الإسلام وقاية اجتماعية بحتة ، يتقى بها أخطاراً أكبر من مزاج الأفراد ، ومن رغبات الزوجات والأزواج .

ولقد كان موضع الحديث عن هذه الرخصة هو فصل الحديث عن « سلام المجتمع » لأنها ألصق به وأدخل فيه ؛ ولكنها ليست غريبة عن فصل « سلام البيت » الذى نحن فيه ؛ فالفرد والبيت والمجتمع والإنسانية كلها متداخلة متعاونة متناسقة ، فى الواقع ، وفى فكرة الإسلام عن الحياة .

إن ثرثرة طويلة عريضة تتناثر حول حكاية تعدد الزوجات فى الإسلام ؛ فهل هى حقيقة تلك الآفة الخطرة فى حياة المجتمع ؟ بل هل يمكن أن تصبح آفة خطرة فى يوم من الأيام ؟ وهل تحتاج إلى تشريع يناقض أو يقيد تلك الرخصة التى جاء بها الإسلام ؟

إننى أنظر فأرى كل مشكلة اجتماعية قد تحتاج إلى تدخل من التشريع بالتعديل أو التقييد ، إلا مسألة تعدد الزوجات ، فإنها تحل نفسها بنفسها ، ولا توجد إلا حيثما كان المجتمع فى حاجة إليها ، وتسمح أوضاعه وضروراته بها .

إنها مسألة تتحكم فيها الأرقام ولا تتحكم فيها النظريات ولا التشريعات . ولست أدرى كيف جاز أن تلوكها الألسن ، ولا كيف أصبحت مجالا للأخذ والرد والنقاش !

فى كل أمة رجال ونساء . ومتى توازن عدد الرجال الصالحين للزواج ، المستعدين له ، المقبلين عليه ، وعدد النساء الصالحات للزواج ، الراغبات فيه ، فإنه يتعذر عمليا أن يحصل رجل واحد على أكثر من امرأة واحدة .. لأن الأرقام هنا هى التى تتحكم !

إن معنى استطاعة رجل ما أن يحصل على امرأة أخرى .. هو أن هناك امرأة زائدة لا تجد رجلا يقابلها . و يستوى أن يكون هذا الرجل غير موجود حقيقة أو حكما . أى أن يكون عدد النساء فى سن الزواج أكثر عدديا من عدد الرجال فى الأمة ؛ أو أن يكون أكثر من عدد الرجال الصالحين للزواج أو القادرين عليه من جميع الوجوه ، أو الراغبين فيه على فرض استطاعتهم له .

فإذا لم يزد عدد النساء الصالحات للزواج حقيقة أو حكما على عدد الرجال تعذر كما قلت أن يجد رجل أكثر من زوجة حتى لو أراد ؛ وحلت المسألة نفسها بنفسها عن طريق الأرقام !

فأما حين يختل توازن الأمة ، فيقل عدد الرجال الصالحين للزواج عن عدد النساء ، سواء كانت هذه القلة من ناحية العدد كما يقع بعد الحروب والأوبئة التى يتعرض لها الرجال أكثر ، أو لأى سبب آخر ؛ أو كانت من ناحية عدم القدرة على الزواج لأسباب اقتصادية أو عائلية أو اجتماعية عامة .. فهنا فقط يوجد مجال لأن يستطيع رجل تعديد زوجاته .

فلننظر إذن فى هذه الحالة ، وأقرب الأمثلة لها الآن ألمانيا حيث توجد ثلاث فتيات فى سن الزواج مقابل كل شاب فى هـذه السن (ما بين سن ٢٠ و سن ٤٥) .. إنها حالة اختلال اجتماعى واضحة ، فكيف يواجهها المشرع

الذى يعمل لحساب المجتمع ولحساب المرأة والرجل ولحساب النفس الإنسانية جميعاً ؟

إن هنالك حلا من حلول ثلاثة :

الحل الأول : أن يتزوج كل رجل امرأة ، وتبقى اثنتان لا تعرفان فى حياتهما رجلا ، ولا بيتا ، ولا طفلا ، ولا أسرة ..

والحل الثانى : أن يتزوج كل رجل امرأة فيعاشرها معاشرة زوجية ، وأن يختلف إلى الأخريين أو واحدة منهما لتعرف فى حياتها الرجل ، دون أن تعرف البيت أو الطفل أو الأسرة . فإذا عرفت الطفل تلبية لنوازعها الأنثوية العميقة عرفته عن طريق الجريمة ، وعرفته متهما مشبوها ، ليس له والد معروف ، وحملت نفسها وحملت الطفل البرىء ذلك العار وذلك الضياع !

والحل الثالث : أن يتزوج هذا الرجل أكثر من امرأة ، فيرفعها إلى شرف الزوجية ، وأمان البيت ، وضمانة الأسرة وتأمين الطفولة . ويرفع ضميره عن لوثة الجريمة ، وقلق الإثم ، وعذاب الضمير . ويرفع المجتمع عن لوثة الفوضى واختلاط الأنساب ، وقذارة الفحشاء . ويمنح الأمة فرصة التعويض عن هذا الاختلال بنسل جديد يتم فيه التوازن بعد الحروب والأوبئة التى تنشىء هذا الاختلال .

أي الحلول فى هذه الحالة أليق بالإنسانية ، وأحق بالرجولة ، وأكرم للمرأة ذاتها وأنفع ؟

إنه موقف لا اختيار فيه . فإما هذا وإما هذا وإما هذا . ولا مجال لعواطف الشعراء ، أو رغبات الأفراد ، أو الثرثرة الجوفاء . إنها ضرورة اجتماعية وضرورة روحية ، وضرورة حيوية . ومواجهتها ينبغى أن تكون فى الحدود

العملية الواقعية ، لا بالخيالات والأحلام .. ولقد اختارت ألمانيا المسيحية التى يحرم دينها التعدد .. اختارت فى هذه الأيام فلم تجد خيرة إلا ما اختاره الإسلام ، وهى لا تدين بالإسلام !

لقد يقول قائل : إن المرأة الآن قادرة على العمل ، فهى قادرة على الحياة بلا رجال !

وأكذب الكذب على الطبيعة والفطرة والواقع أن يقال هذا الكلام . فحاجة المرأة إلى الرجل ، كحاجة الرجل إلى المرأة ، ليست محصورة كلها فى الطعام ، بل ليست محصورة كلها فى مطالب الجسد . وإن كانت هذه لا يغنى عنها المال ولا الطعام أو الشراب . بل إن هنالك لحاجة نفسية عميقة فى كيان كل امرأة أن تجد رجلا . إنها حاجتها إلى الاعتراف بوجودها . وليس شعور الرجل بعيدا عن هذا كذلك ، فإعجاب امرأة برجل يساوى لديه شيئا كثيرا للسبب نفسه ؛ مما يبطل خرافة العامل الاقتصادى الذى يفسر به بعض السطحيين من أصحاب المذاهب المادية شعور المرأة بحاجتها إلى الرجل ليعولها . فالرجل لا تعوله المرأة ولكنه لا يحس فرحا ولا نشاطا ولا اعتزازا كما يحس وامرأة تعجب به .. إنها الإرادة العليا التى أودعت نفس الجنسين هذه الحاجة لتبنى منهما الحياة ، ولتدفعهما إلى التعمير والإنشاء والنماء .

وإذن فما دامت فى هذه الأرض ظروف يقل فيها التوازن بين عدد الجنسين أو ينعدم ، فأكرم حل ، وأشرف علاج ، وأسلم وقاية ، هى تلك الرخصة التى سنها الإسلام ، ووكلها إلى الأرقام ، وتركها تحل نفسها بنفسها ، لأنها لا توجد إلا وهناك من صميم الواقع العددى ما يدعو إلى وجودها ، فإذا

لم يوجد دافع الأرقام ، فلن يكون لها وجود ولو أرادها الإنسان !

وإننى لأتقدم إلى الثرثارين عندنا والثرثارات ، الذين يلغطون وهم لا يدركون البديهيات .. أتقدم إليهم أسألهم : ترى حدث فى يوم من الأيام أن شاباً مصرياً أراد الزواج ، فلم يتمكن من العثور على فتاة ، بسبب أن هناك رجلا آخر طماعا أو شهوانا أو مترفا ، قد حصل على أكثر من زوجة ، فحرم زميله من الحصول على زوجة ، لأنه لا يوجد وفر فى الفتيات ؟ !

نعم ! إننى أعرف حالات كانت النزوة الطارئة ، أو كان الثراء المفاجئ أو كان الحيوان الشهوان . . سبباً لا سبب سواه لأن يتطلع الرجل إلى تعدد الزوجات — وللإسلام فى هذه الحالة وجهة سنكشف فيما بعد عنها — ولكننى أسأل : أو قد اغتصب ذلك الرجل امرأة من بين يدى رجل ، أم إنه وجد فى المجتمع امرأة متعطلة لا يقابلها رجل ؟ إنه لو لم يجد هذه المرأة المتعطلة ما استطاع أن يلبى الحيوان الشهوان ، ولا النزوة الطارئة ولا حموة الثراء المفاجىء ، عن طريق الزواج . . أفى هذا جدال ؟

هنا يقال : إن العوامل الاقتصادية وغيرها من العوامل الاجتماعية تؤثر فى منح بعض الرجال قدرة فائقة على الحصول على أكثر من امرأة ، وتحرم الآخرين هذه الفرصة . فوجود نساء متعطلات ليس دليلا على نقص حقيقى فى عدد الرجال ، ولكن على نقص فى المقدرة الاقتصادية والاجتماعية لبعض الرجال .

وهذا صحيح . ولكن علاجه ينبغى أن يتجه إلى إصلاح الأوضاع

الاجتماعية والاقتصادية التي تنشىء هـذا الاختلال في جسم المجتمع ، لا إلى علاج عرضي بتقييد حق الزواج ، لا يصل إلى مكمن الداء .

ولو ترك الأمر للإسلام لما ترك هذا الاختلال الاجتماعي وهذا التخلخل الاقتصادي ، لأنه بطبيعته يحقق التناسـق والتوازن في المجتمع في كل اتجاه ، ويعطي الضمانات الـكافية لجميع الشركاء . ومن هـذه الضمانات أن تشترط الزوجة ألا يضارها الزوج بأخرى ، فيكون لها شرطها أو تطلب الطلاق .

فالإسلام يعالج الأمر جملة ، فتعدل الجزئيات نفسها بنفسها ؛ ولا يعالج الموقف أجزاء وتفاريق بحلول ضيقة الأفق لا تمتد إلى أبعد من مواضع القدمين ، كما يريد الجاهلون الثرثارون والجاهلات الثرثارات !

ولا يغفل الإسلام عن أن هنالك طبائع غير عادية في الرجال ، لا تـكتفي بواحدة ، ولا بد أن تتطلع إلى أخرى وأخرى . فإن لم تتيسر لها هذه الأخرى في عالم الزواج المعلن الشريف ، وجدتها في عالم الدعارة على نحو من الأنحاء . وبذلك يتفزع المجتمع ، كما تتفزّع الزوجة ويتفزع البيت ، وتعمره الشـكوك والظنون ، ويطير من جوه الأمن والسلام .

أفليس من باب الاحتياط الواقي أن نفسح لمثل هذه الطبائع المجال في دائرة الزواج المنظم الشريف ، بدل أن ندعها تتلصص وتتدسس ، وتدنس نفسها وتدنس سواها ، وتشيع الفاحشة بين الناس . كما وقع في أوربا التي حرمت التعدد الشريف ، لتواجه التعدد المدنس في كل ركن وفي كل اتجاه ؟

ولقد كان الإسلام حرياً بأن يهمل مثل هذه الرغبات ، وأن يتلقاها بالـكبح والعقوبة حتى تقتصر على واحدة ، أو تهلك إذا هلـكت ! لولا أن

مثل هذه الرغبات تقابلها فى واقع الحياة حالات اختلال فى التوازن بين عدد الرجال وعدد النساء. والأمر فى النهاية متروك إلى الأرقام كما أسلفنا، وهى الحكم فى الأمر، بلا تحديد ولا تقييد!

وقد يقال من باب الجدل هنا: وما دام الأمر كذلك فلم إذن وضع الإسلام حداً أعلى لتعدد الزوجات؟ ولِمَ لمْ يترك ذلك لطبيعة الحياة ولحكم الأرقام؟

وهو مجرد اعتراض جدلى. وإلا فلنتذكر أن هذه الرخصة ضرورة فى اعتبار الإسلام، ومواضع الضرورة قاصرة على الحاجة. وأقصى الحاجة هى الأربع؛ لأن الاختلال لا يزيد عادة على هذا الحد، بل قلما يبلغه. ولأن التحديد يشعر بأن الإطلاق كان لضرورة ولم يكن هو القاعدة. وقد جاءت الرخصة مع ذلك مقيدة بشرط العدل الممكن: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلوا فَوَاحِدَةً »[1]. والعدل هنا هو العَدل فى الإنفاق والعَدل فى الرعاية والعَدل فى الكفاية بكل جوانبها مالية وجسدية ونفسية. فأما العاطفة القلبية الشخصية التى لا تؤثر فى مظاهر الحياة، فالعدل فيها ليس فى يد البشر؛ وكل ما يطلب فيها ألا يظهر الميل، فتكون الأخرى كالمعلقة: « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ. فلاَ تميلوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كالمُعَلَّقَةِ »[2].

والذين ينظرون إلى الأمر من زاوية واحدة يخطئون. فقد تضار الزوجة

---

(١) النساء: ٣ (٢) النساء: ١٢٩

الأولى ، ولكن هذه الزوجة لن تكون منصفة حتى تضع نفسها فى موضع الأخرى التى كانت معطلة . أفلو كانت هى أما كانت تقبل الرجل الذى يتقدم إليها ليضمها إليه زوجة شريفة كريمة ، لا خليلة متهمة مدنسة ؟ كذلك يجب أن نلحظ ظروفا كثيرة أخرى : ظروف الزوجة المريضة التى لا يريد رجلها طلاقها ولا تستقيم معها الحياة . والزوجة العاقر العزيزة على الرفيق . . وهكذا وهكذا .

ولقد أراد الإسلام السلام بهذه الرخصة ، وأراد تنسيق الحياة بكل ظروفها وملابساتها ؛ ووضع فى حسابه أشواقها وضروراتها ؛ ووازن بين الأضرار والآلام ؛ فاختار أخفها وأكرمها . فأما الفارغون والفارغات فليسوا فى حساب الإسلام ؛ فالإسلام أكثر جداً من ثرثرة الفارغين والفارغات !

التكافل العائلى

ثم نتجاوز شخص الزوج وشخص الزوجة ، لنجد الإسلام يعنى بأمن الأسرة التى يضمها البيت جميعا ، وينظم العلاقات بينها جميعا ، ويقرر التكافل بينها جميعا . وفى التكافل حقوق وواجبات ، ومزايا وتكاليف ، تنتهى كلها إلى ثقة متبادلة ، واطمئنان إلى الحياة والمستقبل ، وشعور بالأمن فيها والقرار .

إن عاطفة الأمومة وحدها تكفى فى رعاية الوليد ؛ وإن عاطفة الأبوة وحدها تكفى فى النهوض له وللأم بالنفقة ؛ ولكن الإسلام يضيف إلى العاطفة الغامضة التكليف الصريح . شأنه فى ذلك شأنه فى كل جوانب

الحياة . إنه يبث العقيدة ويستثير الوجدان ؛ ولكنه لا يدع التكاليف غامضة مبهمة ، ولا يكلها لمجرد الوجدان والعاطفة . إنما يحددها بالنص ويؤيدها بالتشريع . وكذلك يفعل فى حق الطفولة : « والوالداتُ يُرضعْنَ أولادَهن حولَيْن كاملَيْن لمن أراد أنْ يُتمَّ الرضاعةَ ، وعلى المولودِ له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تُكلَّفُ نفسٌ إلا وُسعَها ، لا تُضارَّ والدةٌ بولدِها ، ولا مولودٌ لهُ بولدِهِ [(١)] »

فأما الوالدان فلهما حقهما المقابل — وفى الإسلام كل حق يقابله واجب — يزيد عليه ما يناسب الأبوة والأمومة من احترام وطاعة وأدب ، ومن رفق فى حالة كبرتهما وعطف . وإن الألفاظ التى يعبر بها القرآن عن هذه المعانى لتشع انعطافا ورقة وشفافية : « وَقضَى ربُّك ألا تعبدُوا إلا إيَّاه وبالوَالدينِ إحسانا ، إما يَبْلُغنَّ عندكَ الكِبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما : أفٍّ ولا تنهرْهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفِض لهما جناحَ الذلِّ من الرحمةِ ، وقلْ : ربِّ ارْحَمْهُمَا كما ربَّيانى صغيراً [(٢)] » . وللوالدة بقدر ما تعبت وبقدر ما عطفت : « وَوَصّينا الإنسانَ بوالدَيهِ حملتْه أمُّه وَهْناً على وَهْنٍ ، وفِصالهُ فى عامين : أن اشكرْ لى ولوالديْكَ إلىَّ المصير [(٣)] » .. ولا بد من لفتة فى الآيتين إلى اقتران الإحسان للوالدين بعبادة الله فى الأولى ، واقتران الشكر للوالدين بالشكر لله فى الثانية ، ففى هذا الاقتران إيحاء ظاهر المعنى لا يخفى .

وينسحب هذا التكافل بين أفراد الأسرة جميعاً : يقوم بالتكاليف أقرب عاصب ثم من يليه حتى يأتى دور ذوى الأرحام . ويرث كذلك أقرب

---

(١) البقرة ٢٣٣ (٢) الإسراء ٢٣، ٢٤ (٣) لقمان ١٤

عاصب فالذى يليه على ذات النظام . لـكى يكون هنالك نوع من التأمين الاجتماعى فى داخل الأسرة . وذلك غير الضمانات الاجتماعية المفروضة على الجماعة وعلى الدولة . وسيأتى الحديث عنها فى حينه .

هذا التكافل العائلى الواسع النطاق ، مضافاً إلى ما أسلفنا من النظم الإسلامية لشؤون البيت .. دعائم للسلام والأمان فى مثابة البيت . وشـعار الإسلام فى هذا هو ذلك الذي قدمناه فى أول الفصل : « الفرد الذى لا يستمتع فى بيته بالسلام ، لن يعرف للسلام قيمة ، ولن يتذوق له طعما ، ولن يكون عامل سلام ، وفى أعصابه معركة ، وفى نفسه قلق ، وفى روحه اضطراب » .

سلام المجتمع

فى المجتمع تتشابك المصالح ، وتتزاحم الدوافع ، ويكثر الشد والجذب ، ويتكرر الأخذ والعطاء . وفى المجتمع يتبادل الأفراد ، وتتعامل الجماعات ، وتتفاعل القوى ، وتتنافس المقدرات . وفى المجتمع يندمج الفرد ، ويندمج البيت ، وتندمج الأسرة ، ويحف بها جميعاً ذلك السياج الضخم الذى يشمل نشاطها جميعاً ، ويمثل اتجاهاتها جميعاً ، ويؤثر فيها ويتأثر بها فى كل اتجاه .

وعندما يفرض بعض المذاهب الاجتماعية أن العلاقة بين الفرد والفرد هى أبداً علاقة المزاحمة والسباق ؛ وأن العلاقة بين الطبقة والطبقة هى أبداً علاقة الصراع والخصومة ؛ وأن العلاقة بين الأفراد والسلطات هى أبداً علاقة الكبت والإجبار . . . يقرر الإسلام أن العلاقة بينهم جميعا هى علاقة الود والرحمة ، وعلاقة التضامن والتعاون ، وعلاقة الأمن والسلام . ويقرر أن القاعدة التى تقوم عليها حياتهم هى قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات ، والتعادل بين المغانم والمغارم ، والتوازن بين الجهد والجزاء . ويقرر أن الغاية المقدرة لهم جميعا هى امتداد الحياة ، وإنماء الحياة ، وترقية الحياة ؛ والتوجه بكل نشاط فيها وبكل نية وكل عمل إلى الله خالق الحياة .

ومن ثم ينتهى كل نشاط فردى ، وكل نشاط اجتماعى ، كما ينتهى كل تنظيم وكل إنتاج ، إلى السلام الكلى ، الذى ينسق بين مختلف النوازع والاتجاهات ، ومختلف القوى والطاقات ، ومختلف الأفراد والجماعات . لأن

هنالك أفقا أعلى من أفق المصالح الوقتية التى تثير الشحناء ، وتؤجج العداوات .

إن المذاهب الغربية منطقية مع البيئة التى نشأت فيها . بيئة الحضارة الغربية المادية ، التى تنفى من الحياة كل هدف أبعد من هدف المصلحة المباشرة القريبة ، وتنفى عن الإنسانية عنصر التطلع إلى ما هو أبعد من الذات . فحين تحكم الحياة كلها هذه الفكرة المادية لا يكون هنالك مجال لغير الصراع القاسى بين الطبقات فى المجتمع ؛ ولا يكون هنالك مجال لغير قوانين العمل وظروف الإنتاج ؛ ومن ثم تصبح مسألة « صراع الطبقات » حقيقة مادية واقعة لا فكاك منها ، ولا أمل فى اجتنابها ، ولا سبيل كذلك لتجاهلها .

فأما حين تحكم الحياة فكرة كالفكرة الإسلامية ؛ وحين تأخذ نظريات الإسلام الاجتماعية سبيلها إلى التنفيذ العملى ؛ وحين يصبح القانون الإسلامى نافذا كما أراده الله لا كما يفسره المحترفون من رجال الدين . . عندئذ تصبح « الجبرية المادية » كما تصبح حتمية « صراع الطبقات » .. مسألة تحكمية لا تستند إلى واقع ولا منطق ؛ لأنها تحكم على بيئة أخرى ، ونظام آخر ، حكما مستمدا من بيئة معينة تحكمها الأفكار المادية ، وتنفى منها فكرة الأهداف العليا للحياة .

إن الإسلام لا يقيم هذا السلام الشامل على حساب الفرد أو حساب الجماعة ؛ ولا يقيمه على أساس من مصلحة طبقة ضد طبقة ، أو سلطة دون سلطة . إنما يقيمه على حسابهم جميعا ولحسابهم جميعا . إنه يعطى كل مجتهد جزاءه ، وكل محتاج حاجته ؛ ويرسم لكل فرد ولكل جماعة ولكل سلطة حدودها لتحقيق العدالة المطلقة فى النهاية . إن القانون الإسلامى الذى لم يضعه

فرد ، ولم تضعه طبقة ولم تضعه سلطة . . هو القانون المبرأ من الميل فى صف فرد ومن محاباة طبقة ومن مراعاة سلطة . ومن ثم فهو الحاجز دون طغيان طبقة على طبقة ؛ وهو الوقاية من ذلك الصراع الذى تحسبه المذاهب المادية ضربة لازب ، لأنها رأته فى المجتمعات الغربية ضربة لازب ؛ ثم رأته فى المجتمعات التى تدعى الإسلام — والإسلام منها براء — ضربة لازب كذلك . وهى عرض موضعى لبيئة خاصة ، بيئة تغاير فى مقوماتها الأساسية مقومات الحياة فى الإسلام .

والآن فلننظر كيف يحقق الإسلام فكرته الكلية فى السلام الشامل القائم على العدل الكامل فى محيط الحياة .

وجدان الحب والرحمة

يبدأ الإسلام بناء المجتمع فى ضمائر الأفراد ووجدانهم ؛ فهناك فى أعماق الروح يغرس بذرة الحب ، وينسم نسمة الرحمة . . الحب الإنسانى الخالص ، والرحمة الإنسانية المبرأة . . إنه يرد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة ؛ ويوقظ فى وجدانهم شعور النسب والقربى ؛ ويذكرهم أخوتهم فى الله وفى المنشأ والمصير . فإذا رفت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا إلى السماحة أقرب ، وإلى السلام أدنى ؛ وهانت أسباب الخلاف والنزاع ؛ وأمكن أن تفلح النظم والقوانين التى يسنها لتحقيق هذا السلام ؛ وكان ذلك الوجدان بمثابة الضمانة الوثيقة للشرائع والتنظيمات ؛ وسارت عجلة الحياة فى يسر ورفق وسماح : «يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذى خلقَكم مِن نفْسٍ واحدةٍ

وخلق منها زوجها ، و بثَّ منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا اللهَ الذى تَساءلون به والأرحامَ . إن الله كان عليكم رقيباً »[١]

وهكذا تنتظم البشرية كلها فى نسب واحد ، وفى إله واحد ؛ وتختفى المنازع والفوارق ، لتبرز تلك الصلة الكبرى الوثيقة العميقة ، التى تشمل الناس جميعاً على اختلاف الملل والنحل ، والأجناس والألوان ، واللغات والأديان .

أما المؤمنون فهم أقرب رحماً بعضهم إلى بعض بطبيعة الحال ، بحكم أخوتهم فى الله ، والتقائهم فى العقيدة التى يعدها الإسلام أوثق من روابط الدم ، ووشائج النسب : « إنما المؤمنون إخوة[٢] » .. « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٣] » .. أولئك يهتف بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا[٤] » وينوط الإيمان فيهم بالحب حتى لا يفرق المرء بين نفسه وأخيه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[٥] » ويحرم عليهم الخصومة أكثر من ثلاث ليال يفثأون فيها غضبهم ثم يثوبون إلى المودة والقربى : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام[٦] »

والرحمة صنو الحب ؛ والله يصف نفسه بها مرارا وتكراراً ، ويمن بها على نبيه أن جعلها فى قلبه فكان ليناً عطوفاً : « فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانفضُّوا من حولِك[٧] » ويمن بها على المسلمين

---

(١) النساء ١ (٢) الحجرات ١٠ (٣) رواه الشيخان (٤) متفق عليه
(٥) متفق عليه (٦) أخرجه الستة إلا النسائى (٧) آل عمران ١٠٣

أن بعث إليهم هذا الرسول الرحيم : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنِتم ، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم (١) » ويجعل القسوة أمارة الكفر والتكذيب بالدين : « أرأيت الذى يُكذّب بالدِّين ، فذلك الذى يدعُّ اليتيمَ ولا يحُضُّ على طعام المسكين (٢) »

والرحمة ليست مطلوبة بالمسلمين وحدهم ولكنها للآدميين جميعاً : « ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء (٣) » .

لا بل إن الإسلام ليخطو بوجدان الرحمة خطوته الكبرى فيتجاوز بها عالم الإنسان كله إلى عالم الأحياء ؛ فيشيع فى القلب البشرى بشاشة ذلك الوجدان ورقته وانعطافه تجاه كل ذى حياة . يقول الرسول الكريم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : نعم . فى كل ذات كبد رطبة أجر (٤) » .

وهى غاية فى استجاشة وجدان الرحمة لاتبلغها إلا العقيدة المؤمنة بالوشائج الكبرى بين الأحياء جميعاً ، وبوحدة الخالق ووحدة الخلق فى هذا الوجود العريض . وهى العقيدة الجديرة بأن تغمر نفس « الإنسان » أرقى هؤلاء الأحياء ، وخليفة الله فى أرضه عليها جميعاً .

---

(١) التوبة ١٢٨ (٢) الماعون ١ — ٣

(٣) أبو داود والترمذى (٤) أخرجه الشيخان .

الأدب النفسى والاجتماعى

ولـكى يحقق الإسلام الحب والصفاء فى النفوس والقلوب ، فإنه يأخذ المسلمين بآداب نفسية وآداب اجتماعية تعين على هذه الغاية ، وتمنع أن تثور الأحقاد فى النفوس ، أو تغمر البغضاء القلوب ؛ وهو يستعين بهذه الآداب الرفيعة الرفيقة قبل أن يستعين بالقانون والتشريع ، وإن كان يتخذ من كليهما أداة ، لأن السلوك المهذب والأدب الجميل والمعاملة الطيبة كلها تشيع فى جو الحياة الاجتماعية رضى و بشاشة وطمأنينة قد تغنى عن التشريع والقانون .

إنه يكره التنفج على العباد والـكبر والخيلاء : « ولا تُصعِّرْ خدَّك للناس ولا تمشِ فى الأرض مَرَحاً . إن اللهَ لا يُحب كل مختالٍ فخور ، واقصدْ فى مشيِك واغضضْ من صوتِك . إن أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير[1] » . « ولا تمش فى الأرض مَرَحاً . إنك لن تخرقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبال طولا[2] » . « إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد[3] » .

والإسلام يلحظ فى هذا طبائع النفوس فهى تكره المتكبرين ، وتبغض المختالين ، وتضيق بالمفتخرين المتباهين ، وتحمل الغيظ والحنق والتبرم بهؤلاء الناس ، ولو لم يقدموا لأحد مساءة شخصية ، لأن مجرد تظاهرهم على هذا النحو يثير فى الآخرين كبرياءهم ، ويحفزهم إلى الرد عليهم بكرههم والتبرم بهم دون شعور .

---

(١) لقمان ١٨ — ١٩ . (٢) الإسراء ٣٧ .
(٣) مسلم وأبو داود .

وإذا كان الإسلام يكره الكبر والخيلاء اللذين قد لا ينالان إنساناً بذاته بالأذى ، فهو يحرم كل ما يمس كرامات الناس وأحاسيسهم ، ويلمزهم فى مشاعرهم أو قيمهم : « يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهن ، ولا تلمِزوا أنفسكم ، ولا تَنابزوا بالألقاب ، بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتبْ فأولئك همُ الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظنِّ إثم ، ولا تجسَّسُو ولا يغتَبْ بعضكم بعضاً . أيحبُّ أحدكم أن يأكلَ لحم أخيه ميْتاً ؟ فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله توابٌ رحيم [١] » .

والإسلام يلحظ أدق مشاعر النفس ، حتى لينهى أن يتناجى اثنان سراً فى حضرة ثالث لا يشترك فى الحديث : « إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يؤذيه » [٢] وهو أدب نفسى عال لطيف .

وفى هذا السبيل كان النهى عن المنّ بالمعروف والصدقة ، فالمن خلق خسيس فى ذاته ، مؤذ لكرامة الآخذين كذلك ، ولهذا فهو يمحق الصدقة ويذهب بالمعروف ، ويحل النقمة والموجدة محلّ الشكر والاعتراف : « يا أيها الّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ وَالأَذَى ، كالذِي يُنْفِقُ مَالَه رِئاءَ الناسِ وَلَا يُؤْمِنُ باللهِ ولا باليوم الآخرِ ، فمثلهُ كمثلِ صفْوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلْدًا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين [٣] » .

---

(١) الحجرات ١١ — ١٢ . (٢) رواه الثلاثة وأبو داود .
(٣) البقرة ٢٦٤

ولا يقف الإسلام عند الحدود السلبية فى هذه الآداب ، بل يدفع إلى الصورة الإيجابية منها لاستجاشة شعور الود و إحساس الألفة ؛ فهو يدعو إلى إشاعة الكلمة الطيبة بين الناس : « وَقُلْ لِعبَادِى يقولوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »[١] « وَقُولوا لِلنَّاسِ حُسْنًا[٢] » . « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا[٣] » . وإلى إفشاء السلام فى كلّ مكان ولكلّ إنسان ، على معرفة أو عَلَى غير معرفة ، فالرّباط الإنسانى وحده يكفى فى التعارف ،و يكفى للتحية و إلقاء السلام ، تأليفاً للقلوب و إشاعة للطمأنينة : « يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير[٤] » . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الإسلام أفضل ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على مَن عرفت ومن لم تعرف[٥] » . و إلى مقابلة السيئة بالحسنة : « ادْفَعْ بِالتى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ[٦] » . « وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الذينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا[٧] » .

وهو يدعو إلى الصفح عن المساءة وضبط النفس عند الغضب وجهادها لا لتضطغن وتحقد ، ولكن لتعفو وتغفر ؛ و ينصرف ما بها من انفعال ويحل محله البرء والسماح : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامُورِ[٨] » .. « وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٩] » .. « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ[١٠] » .. « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ[١١] » .

(١) الإسراء : ٥٣
(٢) البقرة : ٨٣
(٣) النساء : ٨٦
(٤) البخارى
(٥) البخارى
(٦) فصلت : ٣٤
(٧) الفرقان : ٦٣
(٨) الشورى : ٤٣
(٩) التغابن : ١٤
(١٠) آل عمران ١٢٤
(١١) الشورى : ٣٧

وهو يدعو إلى السماحة فى المعاملة بيعاً وشراء واقتضاء : « رحم الله رجلا سمحاً إذا باع و إذا اشترى وإذا اقتضى[١] » وإلى الأمانة فى التبادل « فإن أَمِن بعضُكم بعضاً فَلْيؤدِّ الذى اؤْتُمِنَ أمَانته[٢] » ، و إلى النصح فى التجارة « البيّعان بالخيارِ مالم يتفرقا ، فإن صدقا و بيّنا بورك لهما فى بيعهما و إن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما[٣] »

وهو ينأى بالمسلمين عن مثيرات الأحقاد ومؤرثات الضغائن ، كمجالس القمار حيث ترتفع درجة الأحقاد فى النفوس وتهبط متابعة للكسب الحرام والخسارة الوبيئة ، وكمجالس الشراب حيث لا ضابط للنزوات والهفوات من عقل أو إرادة : « إنما يريد الشيطانُ أن يُوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ فى الخمر والميْسِرِ ويصدَّكم عن ذكرِ اللهِ وعن الصلاةِ . فهل أنتم منتهون ؟[٤] »

وهكذا يقوم الأدب النفسى والاجتماعى بدوره فى تصفية جو الحياة ، و إشاعة المودة والألفة فى النفوس ؛ و يساعد فى بناء السلام فى المجتمع فى عالم الواقع وعالم الشعور .

شعور التعاون و التضامن

ثم يربط الإسلام الأفراد فى المجتمع بعد ذلك برباط المصلحة المشتركة ؛ ويقوى فى نفوسهم شعور التعاون والتضامن ، وشعور الواجب المفروض عليهم جميعاً لصالحهم جميعاً ؛ و يقيم حدود الحرية الفردية عند المصلحة المشتركة ؛ ويشعر الجميع أن هناك أهدافاً مشتركة لا ينهض بها الفرد وحده ؛ ولابد من

---

(١) البخارى والترمذى
(٢) البقرة ٢٨٣
(٣) الخمسة
(٤) المائدة ٩١

التعاون لبلوغها بين الجميع : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته[(١)] » . . « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها و بعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا و إن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً[(٢)] »

والجماعة مسؤولة عن رعاية الضعاف فيها وكفالتهم وحمايتهم فى أنفسهم وفى أموالهم : « فأما اليتيمَ فلا تقهرْ ، وأما السائلَ فلا تنهرْ[(٣)] » .. « أرأيتَ الَّذى يُكذِّب بالدين ، فذلك الذى يدُعُّ اليتيم ، ولا يَحُضُّ على طعام المسكين[(٤)] » « وابْتَلُوا اليتامىَ حتى إذا بلغوا النكاحَ فإنْ آنستم منهم رُشْدًا فادفعوا إليهم أموالهَم ، ولا تأكلوها إسرافاً و بِدارًا أن يَكْبَرُوا . ومن كان غنيًّا فلْيَسْتَعْفِفْ ، ومنَ كان فقيراً فليأ كلْ بالمعروف[(٥)] » .

وفى الحديث : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث . . . و إن أربع فخامس أو سادس[(٦)] » . . « من كان معه فضلُ ظهرٍ فليَعُدْ به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضلُ زاد فليَعُدْ به على من لا زاد له[(٧)] » .

---

(١) رواه الخمسة (٢) البخارى والترمذى (٣) الضحى ٩ ، ١٠

(٤) الماعون ١ ، ٣ (٥) النساء ٦ (٦) متفق عليه

(٧) مسلم وأبو داود

ولتحقيق مبدأ التعاون حرم الربا لما يثيره من الأحقاد فى الجماعة . فليس يخنق النفس أكثر من أن يلجأ المحتاج إلى ذى المال ، فينتهز الفرصة السانحة والضرورة المحوجة ، ويفرض على أخيه ضريبة حراما ، وثمنا للمال يتقاضاه . « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبَّطه الشيطانُ منَ المسِّ »[١] . . « يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وذرُوا ما بقىَ من الرِّبا إن كنتم مؤمنين ، فإنْ لم تفعلوا فأْذَنُوا بحربٍ من اللهِ ورسوله[٢] » .

إن المال يجب أن يعطى للمحتاجين قرضا بلا فائدة ، لتشيع فى الجماعة روح المودة والرحمة ، وروح التعاون والتضامن : « وإن كان ذو عُسْرَةٍ فنَظِرةٌ إلى مَيْسَرة[٣] » ولتكن السماحة طابع الاقتضاء بلا تعسير على المدين ولا إرهاق. فذلك هو اللائق بجماعة الإنسان !

ولتحقيق ذلك المبدأ كذلك حرم الاحتكار ولعن المحتكرين ، فهم نهازون للفرص ، يستوفون أرباحهم الفاحشة من دماء المستهلكين ، فيثيرون حفيظتهم ، ويشيعون فى الجماعة روح التباغض ، ويقتلون بذور التعاون: «من احتكر فهو خاطىء[٤] » . . وحرم الغش وتطفيف الكيل والميزان : « ويلٌ للمُطَفِّفين ، الذين إذا اكْتالوُا على الناسِ يَسْتَوْفون ، وإذا كالوُهم أو وَزَنوهم يُخْسِرون[٥] » . . « من غشنا فليس منا[٦] » . . وحرم أن يبخس الناس أشياءهم ويعطوا دون قيمتها التى تستحق وعد ذلك فسادا فى الأرض : « ولا تبْخَسوا الناسَ أشياءهم ولا تعْثَوْا فى الأرض مُفسدين[٧] » .

---

(١) البقرة ٢٧٥ (٢) البقرة ٢٧٨ (٣) البقرة ٨٢

(٤) مسلم وأبو داود والترمذى (٥) المطففين ١ — ٣

(٦) مسلم وأبو داود والترمذى (٧) هود ٨٥

ثم أمر المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ، فيلتقوا عند ذلك المحور ، ويأخذوا بتلك العروة ، فيشعرهم هذا بوحدتهم فى الله ، وتعاونهم فى سبيله ، وتجمعهم فى طاعته : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا »[1] . . « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »[2] .

وتلك عقدة العقد ، ورابطة الروابط التى يلتقى عليها الجميع ؛ فيحسُّون بالوحدة التى تجمعهم ، وبالواجب الذى يدفعهم . وما من شك أنها لبنة فى بناء السلام الاجتماعى ذات قيمة فى البناء .

الأهداف العليا للحياة

بعد ذلك كله — أو قبل ذلك كله — يحقق الإسلام السلام فى المجتمع الإسلامى بنقلة ينقلها للفرد ، وينقلها للجماعة ، من عالم الذات المحدود إلى آفاق أعلى من الذات وأفسح . . إن الصراع كثيراً ما ينشأ من الطاقة المكبوتة التى لا تجد لها منصرفاً ، ومن المجال الضيق الذى لا يسمح لهذه الطاقة بالتسامى . ذلك حين تضيق آفاق النفس ، وتضمر أهداف الحياة ، ويصبح الواقع الفردى الصغير ، أو الواقع الجماعى المحدود ، هو مجال النشاط ، ومجال العمل ، ومجال الخيال .

والإسلام يفطن إلى هذا كله ، فيخرج الفرد ويخرج الجماعة من جُحْر الغايات الصغيرة القريبة ، ليطلقها فى مجال الأهداف العليا للحياة الطليقة . .

(١) آل عمران ١٠٣ (٢) المائدة ٢

يطلقها من مضيق العمر الفردي القصير إلى فضاء الحياة العامة الكبيرة ، ومن مجال النظرة القومية الضيقة إلى آفاق الإنسانية الرفيعة الشاملة .

عندئذ يحس الفرد أنه لا يعيش لذاته ، وإنما يعيش للإنسانية جميعاً .

وعندئذ تحس الجماعة أنها لا تحيا لهذا الجيل ، وإنما تحيا للبشرية قاطبة . وعندئذ يحسّ المسلمون أنهم أوصياء فى الأرض ، خلفاء لله ، وأن ذواتهم ليست ملكهم ، وجهودهم ليست لهم ، وحياتهم وسيلة لا غاية . ولا وقت إذن ولا فسحة للصراع الفردى الصغير الضئيل ، بينما الغايات العليا والأهداف الشاملة تنتظر الجميع .

إن الإسلام يقول للمسلمين : « كنتم خَيرَ أمةٍ أُخرجَتْ للناسِ تَأْمُرُون بالمعروفِ وتنهوْن عن المنكرِ وتؤمنون بالله »[1] . . ويقول لهم : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنةَ ، يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون . وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن[2] » . . ويقول لهم : « ولْتكنْ منكم أمّةٌ يَدْعُون إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهوْنَ عنِ المنكرِ ، وأولئك هم المفلحون[3] » . فيرفع هاماتهم وأبصارهم إلى ما هو أعلى من الأرض ، وإلى ما هو أشمل من ذواتهم ومصالحهم . إلى الإصلاح الكونى العام . إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . إلى تحقيق الصلاح الإنسانى الشامل . أما أنفسهم وأما أموالهم ، وأما مصالحهم القريبة جميعا فقد باعوها بيع السماح ، بل باعوها بما هو خير وأبقى فقد اشتراها منهم الله .

إنهم مكلفون أن يجاهدوا فى الله لتصبح كلمة الله هى العليا ، ولتصبح الأرض سلاما لا فتنة فيها . وفى سبيل هذه الغاية العليا لا قيمة لذوات الأفراد

---

(١) آل عمران ١١٠ (٢) التوبة ١١١ (٣) آل عمران ١٠٤

ولا للمصالح والمطامع والشهوات: «وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلهُ لله[١]» .. «من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله[٢]» . «لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل[٣]» .

وهم مكلفون حماية الضعفاء ودفع الأذى عنهم ومنحهم الأمان، أيا كانت جنسيتهم وأيا كانت عقيدتهم، ماداموا يؤمنون بالله، وأيا كان الباغى عليهم من الطغاة: «وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعَفين من الرجال والنساءِ والوِلْدان يقولون: ربَّنا أخرجْنا من هٰذه القريةِ الظالِمِ أهلُها واجعلْ لنا من لَدُنْك وليّا واجعل لنا مِن لدُنك نصيرا[٤]» .

وهم مكلفون أن يغيروا المنكر وقع من حاكم أو من رعية، وقع من فرد أو جماعة؛ فهم ملح الله فى الأرض، وبهم صلاحها، وعليهم تبعة إزالة الآثام منها: «من رأى منكم منكرا فليغيره[٥]» .. وإلا حل بهم الدمار وحق عليهم العذاب: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه[٦]» . «والله لتأمُرُنَّ بالمعرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المنْكَرِ، ولتأْخذُنَّ على يدى الظَّالم، ولتأطرُنّه عَلَى الحق أطراً، ولَتَقْصُرُنَّه على الحق قصراً، أو ليضربَنَّ اللهُ بقُلوبِ بعضكم على بعض[٧]» .

والإسلام إذ يكلف المسلمين هذه التكاليف العليا يرفع نفوسهم وأهدافهم ويطلق طاقاتهم الكامنة فى مجال الإنسانية لا فى مجال الفردية . ومامن شك أن هذا الانطلاق يشغلهم عن العداوات الصغيرة فى المجتمع، والشحناء التى تثيرها المطامع والمطامح . وإنه ليضع تلك الأهداف العليا فى كفة، ويضع

---

(١) الأنفال ٣٩ (٢) رواه الخمسة (٣) من كلام الخليفة الأول أبى بكر
(٤) النساء ٧٥ (٥) البخارى (٦) أبو داوود والترمذى
(٧) أبو داود والترمذى

شهواتهم ومطامحهم فى كفة أخرى ، فيخيرهم بين الكفتين من أول الأمر : « قُلْ : إِنْ كانَ آباؤُكُم وأبناؤكُم وإِخوانُكُم وأَزْواجُكُم وَعَشِيرتُكُم وأَمْوَالٌ اقترفتموها ، وتجارةٌ تخشوْن كسادَها ، ومساكن ترضوْنها . أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتىَ الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين[(١)] .

إنها تكاليف الوصاية على البشرية التى جعلها الله من نصيب هذه الأمة : « الذين إن مكنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر[(٢)] » .. « وكذلك جعلناكم أمَّة وَسَطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكونَ الرسول عليكم شهيدا[(٣)] » وإنها واجب العبادة لله التى تجعل الحياة كلها مشدودة إلى أفق أعلى : « وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون . ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ[(٤)] » .

وفى جو كهذا الجو يستطيع الفرد أن يحقق ذاته ، ويحقق رغبة الاستعلاء فى نفسه ، دون أن يضطر فى ذلك للنزاع الفردى والشحناء ، وإلى العراك الداخلى والبغضاء . فنى المجال متسع للجميع ، وفى الأرض مندوحة عن صراع الديكة على فتات الحياة !

نظام الحكم

فيما تقدم كنا نتحدث عن الوجدانات والمشاعر التى يقيم عليها الإسلام أسس السلام فى المجتمع ، وهى عوامل لاشك فى قيمتها ، ولا مجال لنكرانها . ولكن الإسلام لايعتمد عليها وحدها ، ولا يدع لها تنظيم الحياة الاجتماعية

---

(١) التوبة ٢٤ (٢) الحج ٤١ (٣) البقرة ١٤٣ (٤) الذاريات ٥٦ ، ٥٧

فى عمومها . فنظرة الإسلام الكلية تجمع دائما بين التكليف والتطوع ، و بين التشريع والتوجيه ؛ وتأخذ المجتمع بالنظم والقوانين ، كما تأخذه بالترغيب والتحضيض . وفى مجال السلام الاجتماعى ، يأخذ الإسلام بهذه السنة كذلك فيجعل من نظام الحكم ، وضمانات العدالة القضائية ، وضمانات الأمن والسلامة ، كما يجعل من ضمانات المعاش والتوازن الاجتماعى العام ، وسائل لإقرار السلام فى المجتمع عن طريق التشريع والتقنين والإلزام .

ونظام الحكم فى الإسلام كفيل بإقرار العلاقات بين الراعى والرعية على أسس من السلم والعدل والطمأنينة ؛ ينهض عليها بناء السلام الاجتماعى سليما راسخ الأركان .

إن الراعى لا يصل إلى مكانه إلا عن طريق واحد : رغبة الرعية المطلقة واختيارها الحرّ .

وحكم يقوم على رضى واختيار ، وبعد مشورة من الناس و إذن ، حكم يشيع الثقة والطمأنينة فى النفوس ، ويبثّ الرضى والارتياح فى القلوب ، فلا مجال للبرم به ، والضيق منه ، والتفكير فى الخروج عليه ، ما دام ينهض بتبعاته بالطريقة التى رسمها الإسلام ، وفى الحدود التى شرعها الإسلام .

فما الطريقة الإسلامية فى الحكم ؟ إنها طريقة الشورى : « وأمرُهم شورى بينهم (١) » .. « وشاورْهم فى الأمر (٢) » .. و إذا كانت الشريعة لم تحدد طريقة معينة للشورى ، فذلك متروك لحاجات كل عصر وضروراته وطريقة حياته . ولكن المبدأ مقرر ، والطريقة معينة ، ومن شأنها إشراك الناس فى تدبير أمورهم ، فلا مجال إذن لأن يسخطوا وهم شركاء فى التدبير .

(١) الشورى ٣٨ (٢) آل عمران ١٥٩

وما الحدود الإسلامية للحكم ؟ إنها تنفيذ القانون الإسلامى ، الذى شرعه الله لعباده جميعاً ، لم يراع فيه تفضيل فرد على فرد ، ولا مصلحة طبقة دون طبقة ، ولا إيثار جماعة على جماعة ، ولا تمييز حاكم على محكوم . . كلهم عباد الله . والشريعة قانون الله . فكلهم أمامها سواء .

وطاعة الناس للحاكم مرهونة بإقامة هذه الشريعة وتنفيذ ذلك القانون . فإذا فسق عنه فقد سقطت طاعته . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عَبْدٌ حبشىٌ كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى »(١) فوقّت الطاعة بإقامة كتاب الله دون سواه . والقرآن صريح فى الحكم بالكفر على من لايحكمون بما أنزل الله : « وَمَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أنزَلَ اللهُ فأُولئك هُمُ الكافرون »(٢) ، والإسلام صريح كذلك فى وجوب مجاهدة الكافر ، وتحريم طاعة المسلم له على الإطلاق .

وتنفيذ هذا القانون الإلهى الذى لايحابى أحداً ، ولا يجعل لفرد ، ولا لطبقة امتيازاً خاصاً . حاكما كان هذا الفرد أو محكوما ، وغنية كانت هذه الطبقة أم فقيرة . . كفيل بأن يحقق السلام فى المجتمع ، لأنه يسوس الجميع لمصلحة الجميع .

إن محمداً رسول الله وحاكم المسلمين الأكبر كان يُقيد من نفسه كما روى عمر بن الخطاب . وكان يقول لأهل بيته : « يامعشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا . يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا . وياصفية عمة رسول الله

---

(١) صحيح البخارى . (٢) المائدة ٤٤

لا أغنى عنك من الله شيئا . ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا » [١]

وأبو بكر ، الخليفة الأول وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقف عقب انتهاء البيعة له فيقول : « أما بعد أيها الناس — فإنى قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنتُ فأعينونى ، و إن أسأت فقوّمونى » إلى أن يقول رضى الله عنه : « أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ، فإن عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » . فيقر القاعدة الإسلامية الكبرى فى الحكم وحدوده .

هذا النظام الإسلامى كفيل باستقامة الرعاة ورضى الرعية ، و بإقرار السلام بينهما وتوطيده ، لا بالعسف والجور ، ولا بالكبت والإجبار ، ولا بالقسوة والجبروت ، ولا بالخوف والذل ؛ ولكن بالرضى والقبول والطاعة المنبعثة من أعماق الضمير ، لا رياء ولا نفاقا ، ولا تظاهراً كذابا .

إنه وسيلة من وسائل الاستقرار ، لا تفضلها وسيلة ولا تعدلها . وهو حلقة من حلقات السلام الشامل ، غير منفصلة من السلسلة المتماسكة ، فى فكرة الإسلام الكبرى عن الحياة .

ضمانات العدالة القانونية

يستمد الحكم الإسلامى عدالته أول ما يستمد من عدالة القانون ذاته . فهو كما أسلفنا ليس من صنع فرد ، ولا من صنع طائفة ، حتى تظن به الظنون ، ويخشى أن يميل مع الهوى ، أو أن يتلبس بالخطأ ، فيفوته تحقيق العدالة المطلقة .

(١) متفق عليه .

فأما عند التنفيذ فقد ناط الإسلام ذلك بوضوح القانون ، و بضمير القاضى ورقابة الجماعة . وكل فرد فى الجماعة الإسلامية منوط به هذه الرقابة ، منوط به أن يدفع الظلم حين يقع ، وأن ينبه الحاكم حين يطغى ، والقاضى حين يخطئ و إنه ليبوء بالإثم حين يكتم الشهادة ، أو حين يقر الخطأ ، ولا ينبه إليه إذ يراه .

والعدل الذى يتطلبه الإسلام هو العدل المطلق الذى لا يتأثر بالمحبة والشنآن ، ولا بالمال والجاه والحكام . وآيات العدل فى القرآن صارمة حازمة حاسمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ . إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا . وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [1] » .. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [2] » .. « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [3] » .. « وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [4] » .. « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ [5] » .. « وَلَا تَأْكُلُوا

---

(١) النساء ١٣٠ (٢) المائدة ٨ (٣) الأنعام ١٥٢
(٤) المائدة ٤٢ (٥) الشورى ١٥

أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١) » .

وفى الحديث : « أحبّ الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمامٌ عادل ، وأبغضُ الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلساً إمامٌ جائر (٢) » .

وإن تاريخ الإسلام ليحتفظ بأمثلة ونماذج لا تحصى على العدل المطلق الذى حققه الحكم الإسلامى حتى فى الأيام التى انحرف فيها « الخلفاء ! » عن تعاليم الإسلام ، فقد بقيت ضمائر القضاة ويقظة الجماعة حراساً على العدالة ، تستمد سلطانها من خشية الله والخوف من نقمته ، إذا تهاونت ، أو غشّتْ ، أو سكتت على البغى والجور .

وليس المجال هنا مجال الحديث عن العدالة فى الإسلام ، فنكتفى بنموذجين اثنين من النماذج الكثيرة التى وعاها التاريخ :

وجد علىّ درعه عند رجل نصرانى ، فجاء به إلى شريح القاضى ، وقال : إنها درعى ، ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح ذلك النصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب . فالتفت شريح إلى علىّ يسأله : يا أمير المؤمنين ! هل من بينة ؟ فضحك علىّ وقال : أصاب شريح . مالى بينة !

وكذلك قضى القاضى للنصرانى بالدرع فأخذها ومشى . . إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الدرع درعك يا أمير المؤمنين ، اتبعت الجيش وأنت

(١) البقرة ١٨٨ (٢) أخرجه الترمذى .

منطلق من صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق . فقال علىّ : أما إذ أسلمت فهى لك .

وجلس أبو يوسف للقضاء فاختصم إليه رجل مع الهادى الملك العباسى فى بستان . فرأى أبو يوسف أن الحق مع الرجل ، وأن للسلطان مع ذلك شهوده . فقال : إن الخصم يطلب أن يحلف الهادى على أن شهوده صادقون ! وهنا نكل الهادى عن اليمين — لما يعتقد فيها من مهانة — فرد أبو يوسف البستان على صاحبه .

وحين يطمئن الأفراد فى المجتمع إلى أن القانون الذى يحا كمون به هو من صنع إلٰههم العادل . وأن الحا كم الذى يدبر أمورهم ليست له حقوق زائدة عن حقوقهم . وأنه مدين بهذا القانون دينونتهم . وأن القاضى الذى يتولى القضاء لايستمد حكمه من الهوى ، ولكن من قانون الله و الخوف من الله .. عندئذ تطمئن نفوسهم وتستقر ، ويقوم السلام الاجتماعى على أحد أركانه السليمة . ركن الضمانات العادلة فى الحكم والقضاء .

ضمانات الأمن و السلامة

لا يمكن إقرار السلام فى جماعة لا يتوفر فيها الأمن العام ، ولا السلامة لجميع الأفراد . ولقد سبق فى الحديث عن « سلام الضمير » أن الإسلام يوفر للفرد ضمانات أمنه وسلامته فى حياته الجماعية ، ليصل من هذا إلى بث السلام فى ضميره وتفكيره .

هذا الأمن وهذه السلامة هى ضمانة المجتمع أيضاً . فالفرد والجماعة فى الإسلام ليسا عدوين وليسا ندين . إنما هما خلية واحدة فى صورتين : الفرد

فردا . والفرد مشتركا فى جماعة . وقد نشأت هذه الصورة من طبيعة الإسلام واستمداد شريعته من الله لا من إنسان . فالفرد لا يشرع للجماعة فى الإسلام والجماعة لا تشرع للفرد . إنما يخضع الفرد وتخضع الجماعة لذلك القانون الإلهى الذى يرعاهم جميعا .

وحين تتقرر هذه الحقيقة يصبح أمن الفرد الشخصى هو أمن الجماعة الـكلى ، وأمن الجماعة العام هو أمن الفرد الخاص ، بلا تعارض بينهما ولا انفصام .

إن كل فرد سوىّ ذو مصلحة مباشرة فى توفير الأمن العام للجماعة ، فهذا الأمن لا يكبته ، ولا يقوم على حسابه ، ولا يحاربه فى هدف صالح ، ولا فى غاية مشروعة . وإن الجماعة لتؤدى دورها كاملا حين تضم جوانحها على أفراد كل منهم آمن سالم غانم ، فلا مصلحة لها فى كبتهم أو ظلمهم أو غلهم عن النشاط .

فأما الشواذ المنحرفو الفطرة ، فهم لا يوصفون هذا الوصف لأنهم أخلوا بقانون وضعه فرد لمصلحته ، أو وضعته طبقة لفائدتها كما هو الحال فى القانون الأرضى . إنما هم خارجون على الله وأوامره الموضوعة لمصلحتهم هم بوصفهم أفرادا وبوصفهم أعضاء فى جماعة . فإذا عوقبوا فهم لا يعاقبون باسم فرد ولا باسم جماعة . إنما يعاقبون بقانون الله وباسم الله . فليس عقابهم انتقاما منهم على يد الجماعة لأنهم خرجوا على مصالح الجماعة التى قررتها لنفسها . بل تحقيق لـكلمة الله ، وللصلاح العام الذى يريده الله . ومهما قست هذه العقوبة فإن المعنى الانتقامى لا ظل له فيها . فالله تعالى لا يحرص على مصلحة له خاصة وهو يسن التشريع ، إنما يريد الصلاح العام للعباد ، ويريد إزالة أسباب

الفساد التي تعوق هذا الصلاح العام . بلا رعاية لمصلحة خاصة أو هوى دفين !

وفي ظل هذه الفكرة كانت الضمانات التي فرضها الله للناس جميعا . وكانت العقوبات التي تحل على المفسدين في الأرض منهم ، بما فسقوا عن أمر الله المؤدي إلى الخير العام .

وأولى هذه الضمانات : ضمانة الحياة : « ولا تقتلوا النفسَ التي حرّم اللهُ إلا بالحق[1] » وكل نفس ككل نفس لها هذا الحق المطلق — إلا بالحق — وقتل نفس واحدة يعدل قتل الناس جميعا ، لأنه اعتداء على حق الحياة في ذاته ، بغض النظر عمن يحمل هذا الحق و يمثله . وشريعة الله الدائمة تتضمن هذا المبدأ في كل زمان : « من أجل ذلك كتبْنا على بني إسرائيلَ أنه مَنْ قتَلَ نفْسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا[2] » . . « ومنْ يقتلْ مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها . وغضبَ الله عليه ولعنَه وأعدَّ له عذابا عظيما[3] »

والإسلام لا يدع ضمانة مثل هذا الحق الأساسي للضمير وحده ، وللتحذير من عقاب الآخرة . فهو قد وضع له الضمانات القانونية نصا وتفصيلا ؛ فقرر القصاص في حالة العمد ، والدية والفدية في حالات الخطأ ؛ وجعل القصاص معادلا لما وقع على الحياة من اعتداء . فإن وصل الاعتداء إلى القتل كان الجزاء القتل ؛ و إذا وقف عند الجرح كان القصاص مثله و بحسبه : « يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ في الْقَتْلَى[4] » .. « ولكم في القِصاصِ حياةٌ

---

(١) الأنعام ١٥١ (٢) المائدة ٣٢ (٣) النساء ٩٢
(٤) البقرة ١٧٨

يا أولى الألباب لعلكم تتقون[١] » . . « وَكَتبْنَا عَلَيْهِمْ فيها أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذنَ بالأذنِ والسنَّ بالسنِّ والجروحَ قصاص[٢] » . . « من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه[٣] » . . « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلوماً فقدْ جَعَلنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ، فلا يُسْرِفْ فى القتل إنه كان منصورا[٤] » . . « وما كان لمؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مؤمنا إلا خطأً ، ومن قَتل مُؤمنًا خطأً فتحريرُ رَقبةٍ مؤمنةٍ ودِيةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله — إلاَّ أن يَصَّدَّقوا — فإنْ كان مِن قومٍ عَدُوٍّ لكم وهو مُؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ وإن كانَ من قومٍ بينكم وبينهُم ميثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ، فمنْ لم يجدْ فصيامُ شهرين متتابعيْن . توبةً من اللهِ وكان الله عليماً حكيما[٥] » . .

ويلى ضمانة الحياة ضمانة العرض والمال : « كل المسلم على المسلم حرامٌ دمُه وعرضُه وما له[٦] »

فأما ضمانة الدم ففيما سبق بيان ؛ وأما ضمانة العرض فقد تضمنتها عقوبات الزنا وعقوبات القذف : « الزانيةُ والزانى فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جَلدة ولا تأخذْكُم بهما رأفةٌ فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخِرِ ، ولْيشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين[٧] » ، « والذين يَرْمون المحْصناتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداءَ فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلْوا لهم شهادةً أبداً وأولئك هم الفاسقون[٨] »

---

(١) البقرة ١٧٩ — (٢) المائدة ٤٥ — (٣) رواه الخمسة
(٤) الإسراء ٣٣ — (٥) النساء ٩٢ — (٦) الستة إلا النسائى
(٧) النور ٢ — (٨) النور ٤

وأما ضمانة المال — المال الحلال المكسوب بالطرق التى يقرها الإسلام لا بالغش والربا والاحتكار والسرقة والنهب والسلب وما إليها — فقد تضمنتها عقوبة السارق فى غير اضطرار : « والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاء بما كَسَبا . نكالاً من اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيم[١] »

وتلى ضمانات النفس والعرض والمال . . حرمة المسكن ، فلا تقتحم على أحد داره بغير إذنه ، ولا يتسور عليه أحد نافذة ولا حائطاً : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بُيوتاً غيرَ بيوتِكم حتى تَستأنِسوا وتسلِّموا على أهلها ذٰلكم خيرٌ لكم لعلكم تَذكَّرون . فإن لمْ تَجدُوا فيهَا أحداً فلا تدْخُلوها حَتى يُؤْذَنَ لكمُ وإنْ قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليمٌ[٢] » . . « وليسَ البرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظُهورها ولكنَّ البرَّ منِ اتَّقى ، وأْتُوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون[٣] »

ثم ضمانة الحرية الشخصية فلا تفرض عليها رقابة الجاسوسية « ولا تَجسسوا[٤] » وضمانة الأمن فى الغيبة : « ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً[٥] » والكرامة فى الحضور : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسَكم ولا تنَابزوا بالألقابِ[٦] » . . ولم يذكر القرآن عقوبات معينة على هذه الاعتداءات ، ولكن الشريعة الإسلامية تقرر التعزير . والتعزير عقوبات دون الحدود متروكة للتشريعات الجزئية ، وللقاضى بحسب الظروف .

فأما العصابات التى تعيث فى الأرض فساداً بالجملة ، وترتكب الجرائم

---

(١) المائدة ٣٨ (٢) النور ٢٧، ٢٨ (٣) البقرة ١٨٩
(٤) الحجرات ١٢ (٥) الحجرات ١٢ (٦) الحجرات ١٢

مجتمعة ، فقد ضمن الإسلام للجماعة أن تأمن منها بتقرير عقوبات قاسية عليها ، قد لا يستحقها الفرد على جريمة فردية ، ولكن خطر الاجتماع على الفساد خطر خاص يتطلب عقوبة خاصة : « إنما جزاءُ الذين يحاربونَ اللهَ ورسولَه ويسعوْن فى الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّعَ أيديهم وأرجُلُهم من خلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض . ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا ، ولهم فى الآخرةِ عذاب عظيمٌ[1] »

وبعد فهنالك ضمانات الاتهام — ولها أهمية عظمى فى هذا المجال — فيجب أن يأمن الناس الاتهام بالباطل ، أو الأخذ بالشبهات ، أو اعتساف الأدلة دون يقين . وفى هذا الصدد يضع الإسلام قواعد محكمة ما أيسر ما يقوم على أساسها تحقيق الجنايات .

والمبدأ الأساسى ألا يؤخذ أحد بالظنة ، وأنه لابد من عدالة الشاهد ، ووضوح الدليل ، وأن الشبهة تدرأ الحد .. وذلك لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً مِن الظَّنِّ . إن بعضَ الظنِّ إثمٌ ولا تجسَّسُوا[2] » ولقوله : « يا أيها الذين آمَنُوا إنْ جاءكم فاسق بنبإٍ فتبيَّنُوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين[3] » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ادرأوا الحدود بالشبهات[4] »

وقد رأينا أن الحد فى الزنا يستوجب شهادة أربعة عدول ، وأن الذى يقذف محصنة ولا يأتى بأربعة شهود يجلد ثمانين جلدة .

أما الاعتراف فيعتبره الإسلام حجة مالم تقم عليه شبهة ، فيرجع إلى المبدأ

(١) المائدة ٣٣ (٢) الحجرات ١٢
(٣) الحجرات ٦ (٤) فى مسند أبى حنيفه للحارثى

السابق . وقد جاء ماعز بن مالك إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب الحد على نفسه معترفا بجريمة الزنا ، فلم يقبل النبى اعترافه حتى استوثق منه . فقد رده ثلاث مرات وهو يعود فيعترف ، وفى الرابعة سأل الرسول : أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون ، فقال : أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد فيه ريح خمر . فسأله النبى نصاً : أزنيت ؟ قال : نعم[1] . . وهنا فقط أقام عليه الحد ، بعد أن لم تبق شبهة فى صحة اعترافه .

والاضطرار رخصة تمنع إقامة الحدود ، اتباعاً لقوله تعالى : « فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه[2] » وقد عطل عمر بن الخطاب رضى الله عنه حد السرقة فى عام الرمادة بصفة عامة ، وعطله كذلك فى حادثة فردية فى سرقة غلمان لا بن حاطب بن أبى بلتعة ناقة ، عند ما تبين أن سيدهم لا يعطيهم كفايتهم من الطعام ، وغرم السيد ضعف ثمن الناقة وأطلق الغلمان السارقين .

وهكذا تتوافر الضمانات للفرد والجماعة فى النفس والعرض والمال والحقوق جميعاً . بما فى ذلك حق سلامة الإجراءات وصحة الأدلة عند الاتهام . فتكون هذه الضمانات لبنات فى بناء السـلام الاجتماعى فى محيط الجماعة ، فى ظل ذلك القانون المشروع للجميع ، لمصلحة الجميع ، دون ماغرض ولا هوى ولا محاباة .

ضمانات الحياة المعيشية

يقدر الإسلام قيمة الجانب المعيشى باقتصادياته وضروراته فى حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ ولا يقل تقديره له عن أشد المذاهب المادية اهتمامابه ؛ ولـكنه

---

(١) عن بريدة وقال صاحب مصابيح السنة إنه من الصحاح (٢) البقرة ١٣٧

فقط لا يحبس الإنسان عليه ، ولا يغفل جوانبه الأخرى ، وأشواقه العليا ..
وهذا هو مفرق الطريق بين تلك المذاهب و بين الإسلام .

إن الإسلام يعرف الإنسان إنسانا ؛ فيعرف لضروراته عمقها فى كيانه وأصالتها فى طبيعته ؛ ويعرف بجانبها لأشواقه عمقها فى كيانه وأصالتها فى طبيعته ؛ ومن ثم يحرص على مراعاة أشـواقه وضروراته كل منها فى مكانه ، وكل منها بعمقه وأصالته ؛ وكذلك تجىء تقديراته للإنسانية أسلم ، وتفسيراته للحياة أصدق ، واحتياطاته لها أوفى ، وتلبيته لها أكمل .

ولا يغفل الإسلام عن أن القوانين كلها ، والضمانات جميعها ، يمكن أن تذهب ضياعاً ، إذا فقد الفرد كفايته الضرورية للمعاش ، وأن أشواق روحه قد تطمس ، وإشراق ذهنه قد يخبو إذا هو فقد تلك الـكفاية . ومن هنا يضع الضمانات بجانب التوجيهات لتوفير هذه الـكفاية المعيشية أولا . ثم لتحقيق التوازن الاجتماعى المطلق أخيراً .

ونحن الآن بصدد تلك الضمانات المعيشـية ، فلننظر كيف يوفرها الإسلام و يكفلها :

إن وسيلة الحياة الأولى فى الإسلام هى العمل . والإسلام يمنح العمل قداسة ترفعه وترفع العمال : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف(١) » . « ما أكل أحدكم طعاماً قط خيراً من عمل يده(٢) » .

والرسول يدعو إلى توفية العامل أجره قبل أن يجف عرقه ، وتوفيته له

---

(١) من حديث ذكره القرطبي فى التفسير .
(٢) البخارى .

كاملا . و بعض فقهاء المذهب المالكى يرى أن يكون أجر العامل نصف ربح العمل . وقد عامل النبى أهل خيبر على أساس نصف الغلة .

وعلى أية حال فالإسلام يعد العمل هو وسيلة التملك ، ووسيلة ضمان الحياة المعيشية . فإذا عجز الفرد عن العمل لسبب من الأسباب ، فعلى بيت المال — أى على الدولة — أن تعوله .

وقد فرض عمر للمولود مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتين ، فإذا بلغ زاده ؛ وكان يفرض للقيط مائة ولوليه كل شهر رزقا يعينه عليه ، ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال ، فإذا كبر سواه بغيره من الأطفال . وكذلك قرر لعجزة اليهود والنصارى فريضة من بيت مال المسلمين بوصفهم أعضاء فى المجتمع عاجزين عن الكسب بسبب الشيخوخة أو العاهة .

فإذا كان العمل لا يسد الحاجة فبيت المال هو الكفيل ، كما فى حالة الفقير وهو الذى يملك أقل من نصاب الزكاة ، والمسكين الذى لا يملك شيئاً ، وابن السبيل المنقطع عن ماله ، والمدين الذى ذهب الدين بماله ما لم يكن قد أنفقه فى معصية . فقد شملتهم مصارف الزكاة التى تجبيها الدولة من المالكين وتصرفها بمعرفتها على المحتاجين .

ولقد أباح الإسلام للفرد أن يقاتل ويقتل من فى يده طعامه أو شرابه إذا منعه عنه ، وهو فى حاجة ماسة إليه ، لأنه كحق الدفاع عن الحياة . وذهب الإمام ابن حزم فى هٰذا إلى اعتبار أن أهل المحلة التى يموت فيها فرد من الجوع قَتَلَةٌ له تؤخذ منهم ديته ، بوصفهم هذا لأن الجماعة ملزمة بكفالة كل فرد فيها ، وتوفير الكفاية المعيشية له عن طريق الإلزام لا عن طريق الإحسان .

وهنالك التكافل العائلى الذى يفرض للعاجز والمحتاج فى كل أسرة نفقة مفروضة بحكم القانون على أقرب أوليائه إليه ؛ فتصبح الثروة العامة للأسرة كفيلة بكفاية كل فرد فيها تكليفاً والتزاماً لا صدقة و إحساناً .

وذلك كله غير حق الدولة فى أن تفرض من الضرائب ما تشاء ، وتأخذ من أموال الأغنياء ما تشاء ، لتسد حاجات الأفراد ، أو لتقيم المنشآت والمرافق التى توفر لهم العمل وتوفر لهم الرزق . إلى غير ذلك من الإجراءات التى سنتحدث عنها بالتفصيل فى موضعها عند الكلام على « التوازن الاجتماعى » .

والذى يعنينا هنا هو كفالة النظم الإسلامية للكفاية المعيشية لكل فرد فى الأمة قادراً على العمل أو عاجزاً عنه ، عجزاً كلياً ودائماً ، أم جزئياً وموقوتا ، وما فى هذه الكفالة من إقرار للسلام فى الجماعة ، وحسم للاضطرابات التى تنشئها المجاعة .

أما الاضطرابات التى ينشئها عدم التوازن فى توزيع الثروة العامة ، وفى توزيع المغانم والمغارم ، وفى توزيع الحقوق والواجبات فى محيط الجماعة بشكل عام ، ففيما يلى عنها بيان .

التوازن الاجتماعى

إن كفالة الرزق لكل فرد ، وضمان الكفاية المعيشية للجميع ، لا تعدو فى النظام الإسلامى أن تكون خطوة واحدة بدائية فى طريقه إلى تحقيق عدالة اجتماعية شاملة . وهى خطوة تقوم على مبدأ إسلامى أساسى : « الرجل و بلاؤه والرجل وحاجته[1] » . هذا المبدأ الذى وزع عمر بن الخطاب الفيء على أساسه فى أيام الإسلام الأولى ، والذى ما تزال البشرية تحاوله حتى اليوم ،

(١) من كلام عمر بن الخطاب

فتخفق ، لأنها لا تأخذ بشقيه ، إنما يأخذ مذهب من مذاهبها بشق ، ويأخذ مذهب آخر بالشق الآخر ، فلا يجتمع لأيها ما جمّعه الإسلام بطريقته الكلية الشاملة فى علاج الحياة .

وعلى أيٍّ فهى خطوة واحدة — كما قلت — من خطوات الإسلام فى طريقه إلى تحقيق عدالة اجتماعية شاملة ، تحقق سلاماً اجتماعياً شاملا .

إن التوازن الاجتماعى هو القاعدة الكبرى التى يقيم عليها الإسلام بناء العدالة الاجتماعية ، التى ينهض على أساسها السلام الاجتماعى . وكل ما مضى فى هذا الفصل من ضمانات وتأمينات لم يكن إلا مقدمات وأسبابا لتحقيق ذلك التوازن بصفة شاملة .

هذا التوازن ملحوظ فى نظام الحكم وطريقته ، وفى طبيعة التشريع وطرق التقاضى ، وفى كفالة الأمن وكفالة الرزق ، ولكنه يبلغ ذروته فى الجانب الاقتصادى العام ، جانب توزيع الثروة العامة وضوابطه وقيوده فى محيط الجماعة . وهو يبلغ إلى هذه الذروة بوسائل شتى نستعرض منها فى اختصار أهمها وأبرزها ، إذ كان هذا الكتاب خاصاً بالسلام العالمى والإسلام ، لا بالعدالة الاجتماعية فى الإسلام (١) .

***

يقيم الإسلام هذا التوازن على عدة مبادىء أساسية عامة ، يقررها كأصول لنظريته فى المال :

---

(١) يراجع بتوسع فى هذا الموضوع كتاب : « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » وكتاب « معركة الإسلام والرأسمالية » للمؤلف .

المبدأ الأول : مبد ألا يكون المال متداولا فى أيدى الأغنياء دون الفقراء .

ويقرره بنص صريح : « كى لا يكونَ دُولةً بين الأغنياء منكم(١) . » تعليلا لتصرف واقعى من تصرفات الرسول . فيأخذ حكم المبدأ العام . ذلك حينما أعطى فيء بنى النضير كله للمهاجرين الفقراء دون الأنصار الأغنياء — فيما عدا رجلين فقيرين منهم لاشتراكهما فى الوصف مع المهاجرين — كى يعيد التوازن الاقتصادى بين فريقى المسلمين فى ذلك الأوان . مع أن هؤلاء الأنصار كانوا قد آووا المهاجرين وشاركوهم أموالهم ودورهم ومتاعهم ، وآخوهم إخاء كاملا يقوم مقام الإخاء فى الأنساب ؛ بحيث لم يكن هناك ما يفرضه عليهم الإسلام غير ما صنعوا متطوعين من مقاسمة لإخوانهم الفقراء فيما وهبهم الله من كل شيء .

كذلك تقرر هـذا المبدأ عزيمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو — وإن لم تمهله الطعنة الغادرة لينفذها — قد صرح بها ، فلم ينكر عليه أحد من المسلمين ، وبذلك تأخذ صفة المبدأ الإسلامى العام : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » وقد اعتزم أن يستدرك هذا الذى فاته فى العام القابل ، مع التسوية المطلقة فى عطاء المسلمين من الفيء .

وبهذا المبدأ توضع القاعدة الأساسية لتوزيع الثروة فى الأمة الإسلامية . ولا يهم أن يكون هذا المبدأ قد عطل فى بعض الفترات ، ففى يد الدولة المسلمة

(١) الحشر ٧

أن تنفذه بالطريقة التى تتطلبها الأوضاع الاقتصادية فى كل زمان ، والتى يتطلبها السلام الاجتماعى فى كل مكان .

وهذا المبدأ يخصص مبدأ حق الملكية الفردية ويقيده ، ويجعله دائما خاضعا لسلطة الدولة فى إعادة توزيع الثروة العامة حسب المقتضيات والأحوال .

والمبدأ الثانى : مبدأ « المصالح المرسلة » ، أى المصالح العامة التى لم يرد فيها نص خاص ، والتى يخول الإسلام للدولة ، بل يوجب عليها أن ترعاها بحسب المقتضيات والظروف . وقد شرحتها فى كتاب « العدالة الاجتماعية » بتوسع ، فأكتفى هنا بالنص على أن للدولة تطبيقا لهذا المبدأ ، أن توظف فى أموال الأغنياء — كما يقول الإمام مالك — أى أن تأخذ من أصلها — لا من الربح ولا فى صورة ضريبة — ما تقتضيه حاجة الخزانة العامة للانفاق على مصالح المسلمين العامة ، وما تتطلبه وقاية المجتمع ووقاية الوطن الإسلامى من نفقات تعجز عنها الموارد العادية للدولة ، ثم لا ترد ما أخذته من رؤوس الأموال (١) .

وفى هذا المبدأ تقييد كذلك لحق الملكية الفردية وتحديد ؛ يجعله دائما خاضعا لحاجات الدولة العامة أى لحاجات الجماعة ، وخاضعا لسلطة الدولة بلا قيد إلا قيد الحاجة الاجتماعية فى عمومها . وفى ظله تملك الدولة تحقيق التوازن الاقتصادى ، لا عن طريق الضريبة فحسب بل بانتزاع أنصبة من الملكية الفردية ، دون تعويض ودون رد ، لتنفق فى المصالح العامة للجماعة .

---

(١) يراجع كتاب « مالك » للأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول — فصل « المصالح المرسلة » .

والمبدأ الثالث : مبدأ سد الذرائع . و « الذريعة معناها الوسيلة . ومعنى سد الذرائع رفعها ، ومؤدى الكلام أن وسيلة المحرم محرمة ، ووسيلة الواجب واجبة ، فالفاحشة حرام ، والنظرة إلى عورة الأجنبية حرام لأنها تؤدى إلى الفاحشة . والجمعة فرض ، فالسعى لها فرض ، وترك البيع لأجل السعى فرض أيضا . والحج إلى البيت الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله . . والأصل فى اعتبار سد الذرائع هو النظر فى مآلات الأفعال ، وما تنتهى فى جملتها إليه . فإن كانت تتجه نحو المصالح التى هى المقاصد والغايات من معاملات بنى الإنسان بعضهم مع بعض كانت مطلوبة بمقدار يناسب طلب هذه المقاصد . وإن كانت لا تساويها فى الطلب . وإن كانت مآلات تتجه نحو المفاسد ، فإنها تكون محرمة بما يتناسب مع تحريم هذه المفاسد[1] » .

والذى يهمنا هنا فى مجال التوازن الاجتماعى هو أن عدم التوازن فى توزيع الثروة العامة من شأنه أن يؤدى إلى مفاسد اجتماعية شتى ، ليس أقلها تأريث الضغائن والإحن بين الأفراد والجماعات ؛ وقعود الهمم عن الدفاع عند الخطر ، إذ لا يجد المحرومون مصلحة لهم فى الدفاع عن وطن يظلمهم ويحرمهم . . . الخ .

فمن واجب الدولة إذن أن تمنع هذه الوسيلة المؤدية حتما إلى غايات وبيلة .

وهنا كذلك نجد نفس القيود على حق الملكية الفردية ؛ ونجد فى يد الدولة مبدأ بعد مبدأ لتتدخل على النحو الذى يمنع الضرر ويحقق المصلحة ؛ وإلا كانت آثمة مقصرة فى اتخاذ الحيطة ؛ ومن واجب الجماعة حينئذ أن

---

(١) كتاب مالك للأستاذ محمد أبو زهرة .

تعزم أمرها، وترعى مصالحها، وترد الدولة المقصرة إلى حدود الواجب وتنفيذ الشرائع .

والمبدأ الرابع : مبدأ تحريم الرّبا . فالإسلام يقرر أن لا جزاء إلا على الجهد . وبما أن رأس المال فى ذاته ليس جهداً ، فهو لا يربح بذاته ؛ إنما طريقة الربح الوحيدة هى العمل ؛ فلا يجوز إذن أن يكون مجرد وجود المال عند صاحبه وسيلة لزيادة المال ، بإضافة فائدة إليه عند اقتراضه . .

هذا المبدأ الأساسى فى الإسلام يحول دون تضاعف المال بذاته ، مما يقع الآن فى النظام الرأسمالى ؛ ويضع قيدا ضخما فى طريق تضخم الثورات على حساب حاجة الأفراد للمال ، واضطرارهم لاستدانته بالربا ؛ كما يمنع سببا من رئيسيا من أسباب الاستعمار والحروب الدولية ؛ ويعطي العمل قيمته فى مجال الإنتاج ، ويحقق العدالة بين الجهد الحقيقى والجزاء ، ويمنع أن ينال القاعدون الكسالى جزاء لا يستحقونه ؛ وهم ينالونه فى العالم الرأسمالى بمجرد توظيف أموالهم فى البنوك وغير البنوك ؛ فيضمنون الربح الحرام وهم قاعدون ؛ وتتضاعف ثرواتهم وتتضخم ؛ وتخل بالتوازن الاقتصادى والاجتماعى على نحو ماهو مشاهد فى ذلك العالم الرأسمالى المتعفن .

والمبدأ الخامس : مبدأ تحريم الاحتكار . ويشمل الاحتكار جميع عقود الامتياز . والاحتكار يخلق قوة طاغية فى يد المحتكر ، لا يستمدها من الجودة والإتقان ، وحسن الخدمة وكفايتها ؛ إنما يستمدها من وجود عقد الامتياز فى يده ، أو من احتكاره للسلعة فى السوق . هذه القوة الطاغية تستخدم دائما ضد مصالح المستهلكين . أى ضد مصلحة الجماعة . وها نحن

أولاء نذوق وبال أمرنا من شركات الاحتكار فى شتى مرافق الحياة ؛ ونحن عاجزون عن الوقوف لها ، لأنها تتخذ من حاجتنا إلى السلع وإلى المرافق سلاحا لا نملك له مقابلا ؛ وهى تملك أن ترشو القائمين بالحكم والمراقبين على أعمالها ، وتسترد قيمة هذه الرشاوى مضاعفة من الجماهير المغلوبة على أمرها أو تخفى السلعة المحتكرة فى أشد أوقات الحاجة إليها . وبذلك كله يختل التوازن فى المجتمع ، لأن فريقا قليلا منه يملك قوة لا مقابل لها فى أيدى الآخرين ؛ ويختل التوازن الاقتصادى لأن الاحتكار وسيلة لتضخيم الثروات بأيسر جهد ، وعن طريق حرام ، وبوسائل مريبة ، وبإفساد الذمم والضمائر والأخلاق .

والمبدأ السادس : مبدأ شيوع الموارد العامة . وهو ما يسمى فى زماننا هذا : « تأميم المرافق العامة » قياساً على شيوع الماء والكلأ والنار التى نص عليها الحديث بوصفها موارد عامة لا يجوز تحديدها بملكية خاصة ، وبوصفها ضروريات للحياة يجب أن تظل مشاعة . وقد رتب المالكية على هذا شيوع الركاز فلا يؤول إلى ملكية خاصة ، « ويرى المالكية فى أشهر أقوالهم أن ليس شىء من الأنواع الثلاثة : المعادن والفلزات والسوائل فى محالها (مناجمها) من الأموال المباحة حتى يتملكها من وجدها واستولى عليها . . وإنما هى ملك للمسلمين استولوا عليها باستيلائهم على أرضها لأنها منها ، وثمرة من ثمراتها ، ولكنها مع ذلك لا تعد تابعة لها ، فلا تملك بامتلاكها . إذ ليس لمثلها تملك الأرض وتطلب عادة ، فبقيت للمسلمين [1] » .

(١) كتاب « أحكام المعاملات » للأستاذ على الخفيف الأستاذ بكلية الحقوق جامعة فؤاد

وما من شك أن رد الملكية العامة فى هذه المرافق للجماعة ، فيه قضاء على سبب هام من أسباب فقدان التوازن الاقتصادى فى المجتمع ، لأن هذه الموارد العامة تمثل القسم الأكبر — أو قسما ضخماً — من الثروة العامة ، تملكه فى النظام الرأسمالى شركات أو أفراد . وتنشأ من هذه الملكية آثار سيئة فى داخل الجماعة ، كما أنها تصبح سبباً من أسباب النزاعات الدولية ، وألاعيب الاستعمار .

والمبدأ السابع : مبدأ تحريم السرف والترف . والإسلام لايحب للناس الشظف والحرمان ، بل يدعوهم إلى الاستمتاع بالطيبات ، ويستنكر تحريمها والصد عنها ، ويستنكر السرف والترف ، لأنهما ليسا من تلك الطيبات المطلوبة الحلال : « يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِين . قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون (١) » .

والترف منكر فى الإسلام لما يخلفه من انهيار وترهل فى بنية الفرد وفى بنية الأمة ، ولما يبثه من فساد وتعفن فى كيان الفرد وفى كيان الجماعة فالمترفون كانوا على مدار التاريخ هم أسباب انهيار المجتمعات والشعوب : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرا (٢) » .

---

(١) الأعراف ٣١ ، ٣٢ (٣) الإسراء ١٦

والذى يهمنا أن نبرزه هنا هو أن الترف فى أمةٍ لايقوم إلا على حساب الشظف فى فريق كبير من أبنائها ، فمن دماء الجماهير وجهودها ، ومن ضرورياتها وحاجاتها ، يستمد هذا النفر المترف لذاته وكمالياته ، مما يثير أحقاد النفوس وحزازات الصدور ، ومما يفقد الجماعة روح السلام والإخاء ، ويقيم بعضها حربا على بعض ، لتناقض المصالح ، واختلاف المطامح . . ذلك كله فضلاً على القذارة التى يخلفها المترفون فى المجتمع ، والفضلات الآسنة المتخلفة عن إشباع شهواتهم المريضة .

ولما كان وجود المال فى أيدى هؤلاء المترفين هو الذى يهيئ لهم هذه اللذائذ الدنسة ، وتلك الشهوات القذرة ؛ وفى الوقت ذاته يؤجج العداوات والحزازات ، ويخلخل بناء المجتمع ويهزه من أساسه ، فإن « مبدأ سد الذرائع » يتدخل هنا ، ويفرض على الدولة أن تنزع الوسيلة الخطرة من أيدى العابثين بالنار . فمبدأ سد الذرائع هو مبدأ الوقاية من الاحتمالات المنتظرة . وهو الذى يحرم الوسيلة إذا كانت تؤدى إلى غاية ضارّة ، ولو كانت هذه الوسيلة بذاتها غير محرمة . ووجود المال فى أيدى هؤلاء هو الوسيلة التى يجب منعها اتقاء للعاقبة ، كما هو بيّن فى هذا المجال

والمبدأ الثامن : مبدأ تحريم الكنز . « والذين يكنِزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشِّرْهم بعذاب أليم ، يوم يُحْمَى عليها فى نار جهنم ، فتُكْوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون[1] » .

---

(١) التوبه ٣٤ ، ٣٥

ذلك أن حبس المال عن التداول ، والكف عن الإنفاق فى سبيل الله أى فى تلبية الحاجات والمصالح التى تتم بها كلمة الله . من شأنه أن يفسد التوازن المالى والتجارى والاقتصادى عامة ، ويفسد معه التوازن الاجتماعى ، ويؤدى بذلك الفساد إلى محظورات ومحرمات يجب — تبعاً لمبدأ سد الذرائع — منعها من الوقوع ومنع أسبابها التى تؤدى إليها . وحسب هذا التخريج لا تصبح مسألة الكنز مسألة شخصية أو فردية ، ولا جريمة ذاتية يترك حسابها إلى الله فى الآخرة يوم تكوى الجباه والجنوب والظهور . إنما تصبح مسألة تشريعية ، تطالب الدولة بمنعها عن طريق التشريع وعن طريق التنفيذ تحقيقاً للمبدأ الذى أسلفنا .

وشرائع الإسلام ونظمه وحدة متكاملة متناسقة ، وكل مبدأ من مبادئه يفضى إلى الآخر ، حيث تلتقى كلها عند الفكرة الكلية للإسلام ، فلا يجوز عند التشريع أخذ المسائل فرادى مبعثرة ، بل ينبغى الرجوع دائماً إلى الفكرة الكلية الشاملة .

وما من شك أن حبس المال عن الإنفاق ذو ضرر واضح بارز واقع . فإن كان هذا الحبس عن بخل وتقتير فهو داخل فى نص النهى فى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك[1] » ، وإن كان عن كراهية للإنفاق فى سبيل الله فهو داخل فى نص النهى فى قوله : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَةِ[2] » باعتبار الكف عن الإنفاق فى سبيل الله « تهلكة » للفرد وللجماعة . ومن هنا يدخل مبدأ سد الذرائع من أوسع الأبواب .

---

(١) الإسراء ٢٩ (٢) البقرة ١٩٥

وقد احتج بعض المحترفين من رجال الدين بالقول : بأن ما أديت زكاته ليس بكنز ، للتدليل على أن حق المال هو الزكاة وحدها ، وأن لا حرج فى الكنز بعد ذلك . ولكن هنالك حديثاً صريحاً يبين حدود الكنز . ويبين فيم يحتفظ بالباقى بعد الزكاة حتى لا يكون كنزاً . ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من جمع ديناراً أو درهما أو تبراً أو فضة . ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه فى سبيل الله ، فهو كنز يكوى به يوم القيامة[1] » .

وقد أبان هذا الحديث ما يجوز الاحتفاظ به ، والأغراض التى يجوز الاحتفاظ به من أجلها ، وما عدا هذا فهو كنز ينطبق عليه نص التحريم ؛ وهكذا فليفهم الإسلام على ضوء مبادئه الكلية العامة فى هذا المجال .

والمبدأ التاسع : مبدأ من أين لك هذا . فليس حق الملكية الفردية مطلقا فى الإسلام كما يتصور بعض الجهال بالدين و بعض المحترفين . إن الملكية الفردية لا تقوم إلا على أسباب صحيحة مشروعة ، لا تخالف عن مبادىء الإسلام العامة فى المال ، ولا عن مبادئه العامة فى الأخلاق كذلك . فهى لا يمكن أن تقوم على النهب والسلب والغصب والسرقة والرشوة والغش أو الربا والاحتكار . . وما إليها . ومن ثم فمن حق الدولة دائما أن تبحث عن أسباب التملك ؛ وترى إن كانت مشروعة أو غير مشروعة . فإن كانت مشروعة فالملكية لصاحبها مقيدة بالقيود التى أسلفنا ؛ وهى تحت تصرف الدولة فى كل وقت لتحقق بها المصالح المرسلة ، وتسد بها الذرائع ، وصاحبها ممنوع من السرف والترف بها ؛ وممنوع من كنزها وحبسها ؛ وللدولة أن تأخذ منها لبيت المال ، وتأخذ فضولها فتردها على الفقراء ، وفضولها هو كل ما زاد على ما فى الحديث .

---

(١) ذكره القرطبى فى التفسير .

هذا كله إذا كانت أسباب التملك صحيحة ومشروعة . فأما إذا لم تكن صحيحة فالإسلام لا يعترف بوجودها من الأساس ؛ ولا يرتب لها حقوق الصيانة والمناعة التى يرتبها للملكية القائمة على أصل صحيح . ومن حق الدولة أن تضمها إلى الخزانة العامة . كليا أو جزئيا . والسوابق على عهد عمر بن الخطاب تعطى الدولة هذا الحق كاملا ، سواء فى نطاق المبادىء الكلية للإسلام ، أو فى نطاق السوابق التاريخية الواقعية .

وهذا هو الإسلام . يقرر حق الملكية الفردية ، ليلبى فى النفس البشرية ميلها الفطرى العميق إلى التملك والاستحواذ ، كى تبذل أقصى نشاطها ، وتنتج أكبر نتاجها ، وتعطى الحياة كل ما أودع الله فيها من الطاقة ، فتنمو الحياة ماقدر لها الله النماء . . ثم يضع الحدود والقيود لهذا الحق ، فلا يؤذى أحد فى خلق ولا فى معاش ؛ ثم يجعل للجماعة فى النهاية حقها المطلق فى هذه الملكية الفردية عن طريق الدولة تحقيقاً للمصالح العامة للجماعة . . وبهذا يحقق كل مزايا الملكية الفردية التى تحتج بها الرأسمالية ؛ وينفى عنها كل عيوبها التى تحتج بها الشيوعية . ويقوم وسطاً بين طرفى الغلو ، متساوقا مع الفطرة السوية التى لاعوج فيها ولا شذوذ .

والمبدأ العاشر : مبدأ الزكاة : ذلك المبدأ الذى تحاول أجهزة الرأسمالية الطاغية أن تبرزه وحده بوصفه أقصى ما فرض الإسلام فى المال من مبادىء ، كى تغطى على الناس وتخدرهم ! والذى تحاول أجهزة الشيوعية حينا والصليبية حيناً أن تبرزه بهذا الوصف ، لتهوّن من شأن الضمانات الاقتصادية والاجتماعية فى الإسلام !

ولقد تعمدت أن أتأخر به إلى موضعه هنا ، فى نهاية المبادىء الإسلامية الأساسية ، ليعرف الناس كيف تدلس عليهم أجهزة الرأسمالية باستخدام المحترفين من رجال الدين ؛ وكيف تدلس عليهم الشيوعية والصليبية — أحياناً أيضاً — ببعض من ينتسبون إلى الدين !

وما كان ذلك تهويناً من شأن هـذا المبدأ الجليل ، ولـكن بياناً للحق المؤيد بالدليل . ولقد قلت فى كتاب : « معركة الإسلام والرأسمالية » عن مبدأ الزكاة ما أكتفى هنا بإعادته ، ففيه هنا كذلك غناء :

« وينبغى أن نضيف إلى هذه العوامل الطبيعية عامل الضريبة الدائمة : ضريبة الزكاة ، هذه الفريضة التى تأخذ بنظام ثابت ما يعادل ٢٫٥ ٪ من أصل الثروة كل عام

« وهنا كلمة يجب أن تقال عن هذه الفريضة التى يشوهها المغرضون والمتحايلون ، فيصورونها بصورة الإحسان المذل لـكرامة الانسان !

« إن الدولة هى التى تجمع هذه الضريبة كما تحصل أى ضريبة ؛ وإن الدولة هى التى تتولى إنفاقها بنظام معين ، قابل للتطور حسب حاجات المجتمع وأوضاعه . فأين هى الذلة فى نظام كهذا النظام ؟ إن المغرضين والمتحايلين يحاولون دائماً أن يرسموا صورة واحدة مزورة لعملية الزكاة : غنى يتبرع ويتصدق وفقير يأخذ ويشكر ! ويد عليا معطية تحتها يد سفل آخذة .. وجها لوجه ، مباشرة بين فرد وفرد !

« من أين جاءوا بهذه الصورة الشائهة المزورة ؟ لست أدرى !

« أئذا فرضت الدولة اليوم ضريبة للتعليم ، جعلت حصيلتها خاصة

بالأغراض التعليمية البحتة ، من بناء للدور أو أداء للأجور ، و إنفاق على أدوات الطلاب وكتبهم وغذائهم كذلك . . قيل : إن هذا نظام للتسول والشحاذة ، يهين كرامة المعلمين والطلاب ، لأن هذه الأموال مأخوذة من أموال الأثرياء منفقة فى شؤون الفقراء ؟ !

« أئذا سنت الدولة قانونا يجبى ٢و٥ ٪ من كل ثروة ، كثرت أم قلت ، لتكوين الجيش وتسليحه ، وجعلت هذه الضريبة وقفا على هذا الباب من أبواب النفقات العامة . . قيل : إن الجيش يتسول ، وإن كرامته تستذل ، لأن الدولة أخذت نفقاته من أموال الأثرياء . والثرى والفقير فى فى أدائها سواء ؟ !

« إن الزكاة ضريبة كهذه الضرائب ، تجبيها الدولة ، ثم تنفقها فى وجوه معينة . تجبيها كلاًّ ثم تنفقها أجزاء ؛ وليست إحساناً فرديا يخرج بعينه من يد ليعطي بعينه إلى يد . وإذا كان بعض الناس اليوم يخرجون زكاة أموالهم ، فيوزعونها بأيديهم فذلك ليس النظام الذى فرضه الإسلام ؛ إنما يصنع هذا البعض ذلك ، ويسلك هذا الطريق المباشر ، لأن الدولة لا تجبى هذه الضريبة بيدها ، لتنفقها هى بمعرفتها ، فى تلك الوجوه القابلة للتصرف بحسب تغير الأحوال .

« ولكن الغفلة والاستغفال يبلغان فى مصر ، أن يتحدث بعض الناس عن الزكاة على أنها إحسان فردى يذل النفوس ويعوّدها الاستجداء ! .

« والجرأة على الحقائق السافرة الأولية إلى درجة التبجح ، لا تنشأ إلا من غفلة المستمعين أو القرّاء إلى حد البلاهة . وكلاهما يتوافر فى البيئة المصرية والحمد لله !

بل يتوافر فى بيئة من يسمونهم « المثقفين » ! الذين يستمعون لكل طاعن فى نظم الإسلام بترحيب وبشاشة ، لكى يثبتوا أنهم مثقفون حقاً ! ألسنا فى عصر الأقزام وجيل الأقزام ؟ ! » .

الاطمئنان إلى القانون

. . . والآن ننتهى إلى الوسيلة الأخيرة التى يسلكها الإسلام لتحقيق السلام فى المجتمع . . تلك هى طبيعة الشريعة الإسلامية وعلاقة النفس البشرية بها ، واستجاباتها لها . وهى ذات أثر حاسم فى إقرار السلام الاجتماعى فى النهاية وتحقيق تلك الضمانات والتأمينات التى سبق الحديث عنها جميعا .

إنه لابد للجماعة البشرية من قانون ينظم علاقاتها ، ويصرف أحوالها ، ويحيلها كتلة متضامنة ذات كيان ، لا أفراداً متناثرة بغير نظام .

والقانون لايؤدى دوره هذا بنجاح ما لم يكن مطاعاً نافذاً . ولن يكون نافذاً ولا مطاعاً إلا أن تطمئن إليه النفوس ؛ وتحس بينها وبينه بالتجاوب والتعاطف ؛ وتلمس فيه تحقيق مصالحها القريبة وأهدافها البعيدة .

والخروج على القانون ينشأ فى الغالب من عوامل ثلاثة تتجمع إليها كافة العوامل الفرعية :

الأول : هو الشعور بأنه غير عادل ، لأنه يحقق مصلحة فرد أو أفراد أو طبقة على حساب الآخرين الذين يحسون فى هذه الحالة أن القانون وسيلة من وسائل تسخيرهم لسواهم ، دون فائدة تكافئ جهودهم ؛ وأن عليهم الغرم ولغيرهم الغنم ، عن طريق هذا القانون .

الثانى : هو الإحساس بالغربة بين روح القانون وروح الجماعة التى تحكم به لأنه لايلبى حاجاتها الشعورية ، ومصالحها المادية ؛ ولا يماشى أوضاعها ، ومقتضيات حياتها ، بسبب غربته عن روحها وظروفها وتاريخها .

الثالث : هو محاولة الفرد تحقيق شخصيته بالخروج على القانون الذى وضعه له سواه ، سواء كان الذى وضع القانون فرداً أو هيئة أو جماعة ، لأن القانون — على أية حال — يتضمن قيوداً ، والاستعلاء على هذه القيود ، فى حالة القانون الذى يضعه الإنسان للإنسان — يحقق الشخصية الذاتية فى شعور الفرد حين يخرج عليه سراً أو جهراً .

وما من قانون من القوانين الوضعية يمكن أن يبرأ من عيب أو أكثر من هذه العيوب . وبخاصة العيبان الأول والثالث ، فهما مجتمعان غالباً فى كل قانون أرضى عرفته البشرية . لا تبرأ منها تلك القوانين التى تشرعها البرلمانات المنتخبة ؛ ولا القوانين التى تسنها طبقة العمال الحاكمة فى الدول الشيوعية .

فأما فى حالة البرلمانات المنتخبة ، فى الدول الرأسمالية ، فحكاية الاختيار الحر من الشعب خرافة . والجماهير تحس فى أعماقها بضخامة هذه الخرافة . لأن الناخب يدرك أنه غير حر فى إبداء إرادته الحقيقية ، وعيشه ولقمة الخبز التى تحفظ حياته فى يد صاحب رأس المال الذى ينتخبه ! وعلى فرض المستحيل فى استمتاع الناخب بحريته المطلقة وهو يختار الرجال للبرلمان . فهذا البرلمان بحكم تكوينه من طبقة معينة تقل فيه العناصر التى هى من الجماهير حقيقة لا دعاية . ومفروض أن ما يسنه من تشريعات ملحوظ فيه مصلحة رؤوس الأموال ، ولا يمكن أن يبرأ من هذا الميل بحال من الأحوال !

وأما فى حالة حكم الطبقة العمالية ، فمفروض سلفاً أن هدف التشريع كله هو تحطيم « الطبقة البرجوازية » ومهما تكن جموع العمال هى الأغلبية ، فهناك فريق آخر ليس التشريع فى صفه ، بل هو ضـــده على وجه اليقين ، ضده بصراحة وعن عمد وإصرار !

وذلك كله فى البلاد التى تستمد تشريعها من واقعها ، ولا تستورده من الخارج استيراداً على نحو مايقع الآن فى مصر وبعض البلاد الإسلامية . أما فى حالة الاستيراد والتقليد . فيضم العيب الباقى ، وتقع الفجوة بين روح القانون وروح الجماهير ، لأنه غريب عليها ، لم يستمد من روحها وأوضاعها وحاجاتها . وتقع مضحكات مبكيات فى تطبيق القانون المستعار ، لو كان للذين يضعونه قسط من البصيرة ، وقسط من آدمية التفكير ، ما ظلوا يستمدون التشريع من حيث يستمدونه فى اطمئنان (١) ! ! !

وعلى حين لا تملك القوانين الوضعية جميعها ، فى قديم الدهر وحديثه أن تبرأ من عيب أو أكثر من تلك العيوب . تقف الشريعة الإسلامية وحدها مبرأة من تلك العيوب جميعاً ، بلا نظير ولا شبيه .

إنه لا مجال فى الشريعة الإسلامية لشعور فرد أو جماعة بأن القانون ليس عادلا بالقياس إليها . لأن أسباب الانحراف عن العدل غير قائمة ، بحكم أن المشرع للجميع هو إله الجميع ، فلا مصلحة له فى محاباة فرد أو جماعة . وبهذا تنمحى من المجتمع الإسلامى فكرة الطبقية ، تنمحى بحكم أن ليس هناك قانون يلحظ مصالح طبقة معينة ، فيوفرها لها على حساب طبقة أخرى ، فكل فرد

---

(١) يراجع كتاب « نائب فى الأرياف » للأستاذ توفيق الحكيم . وكتاب : « الإسلام وأوضاعنا القانونية » للأستاذ عبد القادر عودة .

له حقوق وعليه واجبات متكافئة مع هذه الحقوق . وهكذا يظل المجتمع الإسلامى مجموعة أفراد تتكافأ حقوقهم وواجباتهم فى القانون ، لا مجموعة طبقات تتصارع مصالحها وتتصادم ، ويقضى القانون لبعضها على بعض ، فى هذا الجانب أو ذاك .. وبناء على ذلك فلا ظل للنظام الطبقى فى الإسلام ، وبالتالى لا وجود للصراع الطبقى ، حين تنفذ الشريعة الإسلامية كاملة فى عالم الحكم وعالم المال ، ولا وجود للشعور بانتفاء العدالة القانونية ، ومحاولة الخروج على القانون بدافع من هذا الشعور . إنما تبقى الانحرافات الفردية ، وهذه ليست بذات بال .

ولا مجال كذلك للغربة بين روح التشريع وروح الأفراد والجماعات ، فالشريعة الإسلامية بحكم ما فيها من تناسق شامل ، عرضنا منه نماذج كثيرة فيما مضى ، تلبى حاجات النفس البشرية فى كل مجال للنشاط الإنسانى فهى تلبى حاجة الجسد وحاجة الفكر وحاجة الروح ، فى شعائرها وشرائعها سواء . وهى تلبى حاجة الأفراد وهم يعملون فرادى ، وحاجتهم وهم منتظمون فى الجماعة ، فلا تصادم رغباتهم الفطرية السليمة ، ولا تكبت طاقاتهم الطبيعية القويمة . وفى الوقت ذاته تضع الحدود للنشاط الشاذ الذى يضيرهم أفراداً وجماعات ؛ وتعطى الجماعة ممثلة فى الدولة كل السلطات التى تنتفع بها لخير الجميع من نشاط الجميع وإنتاجهم ، وتكف بها لخير الجميع أيضاً كل نشاط فاحش يجانب الفطرة السوية المستقيمة . وفيما مضى أمثلة فيها الكفاية على هذه الظاهرة المميزة لطبيعة الشريعة الإسلامية .

وأخيراً فلا مجال كذلك لشعور الفرد بالحاجة إلى التمرد لتحقيق شخصيته

والشعور بالاستعلاء تجاه فرد فى المجتمع أو هيئة أو جماعة ، إلا أن يكون ذلك الاستعلاء المضحك على الله !

إن شعور الفرد بأن قوة أعلى من قوته ومن قوة البشر جميعاً هى التى تشرع له ، لكفيل بأن يشعره بالعزة أكثر مما يشعره بالاستعباد ، و بأن يحقق له شخصيته أكثر مما يكبته و يضغطه .. وهى مزية لا تتوافر فى نظام قط إلا النظام الإسلامى ، الذى يجعل الجميع سواسية أمام التشريع ، لا باللفظ المموه ولكن بالحقيقة الواقعة .

إن الإسلام وحده هو الذى يجعل طاعة الحاكم مستمدة من قيامه على الشريعة التى لم يضعها هو بل وضعها إله البشر جميعاً ، وموقوتة بتنفيذ الحاكم لهذه الشريعة واتباعها ، لا بتنفيذ قوانين يبتدعها تخالف عن شريعة الله العليا . فإذا اختلف الحاكم والمحكومون فى حكم أو قضية ، فليس الطريق هو الرضوخ لإملاء الحاكم ، إنما الطريق أن يرجع الحاكم والمحكوم إلى الله والرسول : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول[1] »

وذلك منتهى ما يتطلبه الفرد لتحقيق شخصيته ، ما دامت فطرته سوية لم تشذ أو تنحرف . ولهذه الكثرة الغالبة يشرع الإسلام ، فيحقق فى محيطها الأمن والسلام .

---

(١) النساء ٥٩

سلام العالم

فى ضوء فكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة والإنسان التى أجملنا خطوطها الرئيسية فى صدر هذا الكتاب ؛ ثم فى ظل طبيعة السلام فى الإسلام ، التى سبق الحديث هناك . . نستطيع أن نتبين خطة الإسلام فى تحقيق السلام الدولى بين بنى الإنسان . . ولقد سرنا معه فى خطواته إليها من سلام الضمير ، إلى سلام البيت ، إلى سلام المجتمع ، حتى أسلمتنا هذه الخطوات إلى سلام العالم ، فى تناسق و اطراد .

إن الفكرة الكلية للإسلام عن الحياة تهدينا إلى أنه يعد الحياة وحدة . وحدة من ناحية الزمن ، متماسكة الحلقات ، متدرجة الخطوات ، متضامنة الإجيال ، متعاقبة الأطوار . ووحدة من ناحية الفطرة ، متماسكة النوازع والأشواق ، ممتزجة المادة والروح ، قابلة للارتفاع إذا حسن توجيهها وتزكيتها ، مستعدة للهبوط إذا ساء التوجيه والقيادة : « ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسَّاها[1] »

وفكرة السلام فى الإسلام التى تقوم على تلك الفكرة الكلية الأولى تهدينا إلى أن الإسلام يعد البشرة كلها بشرية واحدة ، و يعد الدين كله ديناً واحداً ، ويعد المؤمنين كلهم أمة واحدة ، و يعد الإسلام هو الطور الأخير والنهائى من أطوار هذا الدين الواحد ؛ فهو يصدق ما تقدمه ، و يهيمن

(١) الشمس ٧ — ١٠

عليه لأنه الطور النهائى منه : « وأنزلْنا إليك الـكتابَ بالحقِّ ، مصدّقا لما بين يديه من الـكتاب ومُهَيْمِنًا عليه[١] » .

والمسلمون إذن مكلفون تبعات إنسانية تجاه هذه البشرية بحكم وصايتهم هذه عليها ووصاية كتابهم على كتبها . هم مكلفون أن يحققوا فى الأرض ذلك السلام الذى أسلفنا خطواته فى الضـمير والبيت والمجتمع ؛ وعرفنا أسسه ومبادئه من العدل والمساواة والحرّية ، وضمانات الحياة القانونية والمعيشية ، ومنع البغى وإزالة الظلم ، وتحقيق التوازن الاجتماعى ، والتكافل والتعاون ، وإزالة أسباب الفرقة والخصام والنزاع بين الأفراد و بين الجماعات ، وسد الذرائع التى تدعو إلى قيام الطبقات وتميزها وصراعها . . إلى آخر ما سبق بيانه فى الفصول المتقدمة من هذا الـكتاب .

وقد جاءت هذه الأمة وسطاً ، عادلا بين طرفى التفريط والإفراط فى كل اتجاهات الحياة ، كما ترسم لها حدود هذا الدين ومبادئه التى عرضنا طرفاً منها فى مجال السلام ؛ فكان عليها أن تنهض بهذا العبء ، وألا تنكل عنه ، لأنه نصيبها المقدّر لها فى الحياة من خالق الحياة : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا كُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[٢] » . . « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ[٣] » .

---

(١) المائدة ٤٨ (٢) البقرة ١٤٣ (٣) آل عمران ١١٠

الجهاد فى سبيل الله

ولكن هذا الدين — مع هذا كله — لم يعتسف الأمور ، ولم يكلف المسلمين إكراه غيرهم على اعتناق دينهم ، بسبب أنه الطور الأوفى والأكمل من أطوار دين الله الواحد فى الأرض : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ[١] » . . إنما كلفهم أولاً حماية المؤمنين حتى لا يُفتنوا عن دينهم ، وكف القوّة عنهم بالقوة ، لأن الدّعوة بالحسنى هنا لا تجدى ، وليس هذا مكانها . وكلفهم ثانياً تحقيق العدالة الكبرى فى الأرض ، وتمتيع البشرية بهذه العدالة فى كل ميادينها ، سواء كانت خاصة بالأفراد فى المجتمع ، أو بالجماعات فى الأمة ، أو بالأمم التى تعيش على هذه الأرض وتتألف منها البشرية الكبرى . وهذا التكليف يقتضى المسلمين أن يكافحوا الظلم والبغى حيث كان ، ولو كان ظلم الفرد لنفسه ، أو ظلم الجماعة لنفسها ، أو ظلم الدولة لرعاياها . . فحيثما كان على وجه هذه الأرض ظلم فالأمة المسلمة مكلفة أن تكافحه وتزيل أسبابه : لا لتملك الأرض ، وتستولى على المرافق ، وتستذل الرقاب ، بل لتحقق كلمة الله فى الأرض خالصة من كل غرض . وهذا هو ما يطلق عليه فى الإسلام « الجهاد فى سبيل الله » أى الجهاد لتحقيق كلمة الله العليا ، لا بإكراه الناس ليكونوا مسلمين ، بل بإتاحة الفرصة لهم ليخلصوا من الظلم والذل ، ويملكوا حرية الاختيار دون تدخل من القوة الطاغية الضالة ، ويستمتعوا بالعدل المطلق الذى يريده لهم الله : « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ[٢] » . وذلك مفرق الطريق بين الجهاد فى سبيل الله والجهاد فى سبيل الشهوات .

---

(١) البقرة ٢٥٦ (٢) النساء ٧٦

ولقد تضمنت مبادىء الإسلام الأساسية ثورة حقيقية كاملة ، تعد أكبر انقلاب عرفته البشرية إلى هذه اللحظة . ثورة على الظلم بكل صنوفه وألوانه ، وفى كل ميادينه ومجالاته ؛ وثورة على النظم والحكومات والأوضاع التى تسند هذا الظلم وتستبقيه لحساب فرد على جماعة فى صورة حاكم أو مستغل ، أو لحساب طبقة على طبقة فى صورة إقطاعيين ورأسماليين ، أو لحساب دولة على دولة فى صورة محتلين ومستعمرين .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد ، وأن تقاومه طبقات ، وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمضى الإسلام بثورته الكاملة الشاملة فى وجه هذه المقاومة . ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذه الثورة وتحقيق كلمة الله فى الأرض ، واستنقاذ البشرية أفراداً وجماعات من جور الأشخاص والحكومات والنظم والأوضاع . لكى يقيم السلام العالمى الأكبر على أسسه الأصيلة ، لا فى العالم الدولى فحسب ، ولكن فى داخل هذه الدول كذلك ، فلا يسكت على وقوع الظلم فى داخل دولة من الدول ليشترى السلم معها بأى ثمن . إن الفكرة العالمية هى الفكرة التى تسيطر على الإسلام ، فليس همه أن يشترى السلم الكاذبة مع دولة من الدول ، بأن يدع هذه الدولة تظلم رعاياها ، وتحرمهم العدل القضائى والعدل الاجتماعى . فهؤلاء الرعايا الذين تحكمهم تلك الدولة الظالمة ، أيًّا كان دينها وأياً كان شكلها ، هم ناس من البشر ، والأمة المسلمة مكلفة أن ترفع عنهم الظلم ، وتمتعهم بالعدل . ومن ثم ينصرف الجهاد إلى تحقيق فكرة الانقلاب العالمى ، لا إلى الحكم والسيطرة والغنم ، وبهذا الانقلاب يحقق السلام بكل صنوفه : سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع ثم .. سلام الإنسانية فى النهاية . سلامها فى ظلال العدل الشامل

الذى ينالـه الإنسان ، لمجرد أنه إنسان ، لأنه من حقه كإنسان : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامينَ بالقسطِ شهداءَ لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربينَ[١] » .. « ولا يَجرمَنَّـكم شنآنُ قومٍ على ألا تعدلوا . اعدلوا هوَ أقربُ للتقوى[٢] » .

وهذه الخطوط تصور طبيعة السلام العالمى فى الإسلام ؛ فليس هو سلاما بالمعنى الضيق أى تجنب القتال بأى ثمن ، وأيّاً كانت الأسس التى يقوم عليها ترك القتال . إن هنالك سلماً رخيصة دنية ، هى السلم التى تقام على حساب البشرية ، وعلى حساب المبادىء العليا للإنسانية كما أرادها الله فى الأرض لبنى الإنسان ، وهذه هى السـلم التى يحذر الله المسلمين منها : « ولا تهنوا وتدعوا إلى السِّلْمِ وأنتمُ الأعلَوْن والله معكم[٣] » ، الأعلون لأنكم تمثلون الفـكرة العليا للحياة ، والتى لا بد لها من النصر حين يؤمن الناس بها لأنها من كلمة الله : « إن تنصروا اللهَ ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم[٤] » .. «ولينصرنَّ اللهُ من ينصرُه ، إن الله لقوىٌّ عزيز ، الذين إن مكنّاهم فى الأرضِ أقاموا الصلاة وآتوُا الزكاة وأمروا بالمعروفِ ونهوْا عن المنـكر ولله عاقبة الأمور[٥] » .

وإذن فالإسلام فى جهاد دائم لا ينقطع أبداً لتحقيق كلمة الله فى الأرض . أى لتحقيق النظام الصالح الذى يقوم على مبادئه العليا فى عالم الفرد وعالم الجماعة وعالم البشرية ؛ وهو مكلف ألا يهادن قوة ظالمة على وجه هذه الأرض، سواء تمثلت هذه القوة فى صورة فرد يتجبر على الأفراد والجماعات ، أو فى صورة طبقة تستغل الطبقات ، أو فى صورة دولة تستغل الدول والشعوب . إنها كلها صورة

(١) النساء ١٣٥ (٢) المائدة ٨ (٣) محمد ٣٥
(٤) محمد ٧ (٥) الحج ٤٠ — ٤١

واحدة فى عرف الإسلام ، صورة منافية لمبادئه الأساسية ؛ وعليه أن يجاهدها ما استطاع ؛ وعليه ألا يهادنها إلا ريثما يتجمع لكفاحها ؛ وعليه بطبيعة الحال ألا يعاونها ولا يقف فى صفها بحال من الأحوال : « ولا تَعاوَنوا على الإثم والعدوان[1] » .

إن قوة الإسلام قوة محررة تنطلق فى الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال . وهى لا تنظر فى هذا المجال لجنس ولا لون ولا لغة ولا دين ، الناس لديها سواء ، كلهم ناس ؛ أما فكرة القومية بمعناها الضيق الذى تفهمه أوربا ، والذى انتقلت إلينا عدواه فى حدوده الضيقة الهزيلة السخيفة ؛ فلا يعترف بها الإسلام على هذا المعنى الذى يخالف فكرته الكلية عن وحدة البشرية .

حيثما كان الظلم فالإسلام منتدب لرفعه ودفعه . وقع هذا الظلم على المسلمين أو على الذميين — أى الذين أعطاهم الإسلام ذمته ليحميهم — أو على سواهم ممن لا يربطهم بالمسلمين عهد ولا اتفاق . وحيثما واجه الإسلام الفرد الظالم أو الطبقة الظالمة أو الدولة الظالمة ، واجههم على أنهم جماعة من البشر تظلم جماعة من البشر ، لا على أنهم سود أو حمر أو صفر أو بيض ، ولا على أنهم مسيحيون أو يهود أو مشركون . واجههم بقدر مايعطلون من تحقيق كلمة الله فى الأرض ، ومن تحقيق السلام الحقيقى لبنى الإنسان . وكان عنيفاً على كل بحسب نصيبه من هذا التعطيل ، وبحسب عتوه وضلاله وفساده . . فإذا استسلمت هذه القوة الطاغية أو اهتدت ، فالأفراد بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من عقيدة ما داموا يؤمنون بالله .

---

(١) المائدة ٢

ومن هـذه النقطة ينشأ الاختلاف بين موقف الإسلام من الكفار والمشركين ، وموقفه من أهل الكتاب . إن الكفار والمشركين ينكرون أساس العقيدة فى الله ، فينكرون بالتالى كل قواعد الخلق والمعانى الأدبية ، بما فيها قواعد العدالة الإلهية . ومن ثم فهم بوجودهم حرب على كلمة الله التى يحققها الإسلام .

ومع هذا فإن الإسلام لا يقاتلهم إلا أن يحاربوا دعوته ويقاوموا فكرته ويؤذوا أهله ؛ بل إنه لا يمنع أن تقوم العلاقات بينهم وبين المسلمين على البر والقسط إذا هم لم يحاربوا الإسلام والمسلمين : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فى الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فى الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ، أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(١) .

فأما أهل الكتاب فهم إما دول مستقلة ، وإما جماعات تعيش بين المسلمين . . فإن كانت الأولى فإما أن تقوم بينهم وبين المسلمين معاهدات ومواثيق ، وإما ألا تقوم . فإن كانت تربطهم بالمسلمين مواثيق فهم على مواثيقهم لا تخلف ولا تنقض ، على نحو ما سنفصل فى الفقرة التالية ، وإن لم يكن هناك ميثاق ، فهم داخلون فى النصوص السابقة : إن كفوا أذاهم عن المسلمين وعن الدعوة الإسلامية فلهم البر والقسط ، وإن لم يكفوا كان على الإسلام أن يخيرهم بين ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

فأما الإسلام فلأنه الطور الأخير من أطوار الدين الخالد ؛ ولأنه الهدى للبشرية جميعاً ؛ ولأنه الناموس الذى يحقق العدالة الإنسانية الشاملة للجميع .

---

(١) الممتحنة ٨ — ٩

وأما الجزية فلأنها دليل الكف عن المقاومة ، وتحقيق حرية الدعوة ، وإزالة القوة المادية التي تصد الناس عنها .

وأما القتال فلأنه فى هذه الحالة هو الرد الباقى على مقاومة كلمة الله عن إصرار وعناد ، وحرمان البشرية من الاستمتاع بما تحمله لها هذه الكلمة من نور ومن عدل ومن سلام شامل كامل لبنى الإنسان .

ويختلف الأمر فى حالة الجماعات التى تعيش بين المسلمين — وهم الذميون أى الذين أعطاهم الإسلام ذمته وعهده لحمايتهم ورعايتهم — وهؤلاء لهم ما لنا وعليهم ما علينا بنص الإسلام الصريح . فأما ما يؤخذ منهم من الجزية ، فهو مقابل ما يؤدى المسلمون من الزكاة ، مساهمة فى نفقات الدولة التى تحميهم كما تحمى رعاياها المسلمين سواء ، والتى توفر لهم العدل المطلق بلا تفرقة ولا تمييز ، وتحقق لهم ضماناتهم وتأميناتهم ، فى حالة المرض والعجز والشيخوخة . ولم يشأ الإسلام أن يجبرهم على أداء الزكاة ، لأن الزكاة عبادة إسلامية خاصة ، وحرية الاعتقاد التى يكفلها الإسلام للأفراد تمنعه أن يكره الذميين على أداء عبادة إسلامية ، لهذا يأخذ منهم الضريبة تحت عنوان « الجزية » لا تحت عنوان « الزكاة » مراعاة لهذا المبدأ الإسلامى العام : « لا إكراهَ فِى الدِّين » .

فإذا شاءوا هم برضاهم واختيارهم أن يؤدوا ضريبة الزكاة كالمسلمين بدل الجزية كان لهم ذلك عن رضى واختيار . وقد اختارت قبيلة بنى تغلب على عهد عمر أن تؤدى الزكاة لا الجزية ، فأدتها على هذا الأساس (١) .

---

(١) كتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف « سير ت . و . أرنولد » وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه ص ٤٩

لذلك لا يكون هناك أعجب ولا أخبث من إثارة الشكوك والمخاوف حول الأقليات المسيحية وغير المسيحية فى الأمة الإسلامية إذا حكم الإسلام . إنها دعاية خبيثة مغرضة آثمة يتولاها أحياناً جماعة من حمقى هذه الأقليات أوخبثائها الذين تنغل نفوسهم حنقاً وغلاً للإسلام ، لالشىء إلالأنه الإسلام . ويتولاها أحياناً أفراد يحملون أسماء مسلمة ؛ وهم فتات آدمى مهلهل يحاول أن يستند إلى أوكار الدعاية الخبيثة ؛ لأنها تملك لهم أعراضاً صغيرة من النفع المادى أو من الشهرة والدعاية لأشخاصهم الهزيلة المدخولة ؛ ولأنهم يجدون بذلك عند الصليبيين من المبشرين و بعض المستشرقين صدراً رحباً ، بما يؤدون للصليبية الخارجية من خدمات ، لا يؤديها الرجل المسلم ولا الرجل الشريف على أية حال . وهم لندرتهم يجدون شارياً فى الأوساط الصليبية ، لا لأنهم شىء ذو قيمة ، ولـكن لأنهم لحسن الحظ نادرون . فقلما ترتكس الفطرة البشرية فىهذه الحمأة المدنسة ، حتى فى عصور الانحطاط والانحلال ! وندرتهم الظاهرة حتى فى جيلنا هذا مصداق هذا الـكلام .

روح السماحة الإنسانية

إن فى روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه ؛ وهى سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها ولا لأتباع دين معين ، إنما هى للإنسان بوصفه إنساناً . وعندما يؤدى الإسلام واجبه فى هداية البشرية وينهض بتكاليفه فى دفع الظلم والفساد عنها ، لا تبقى له سلطة تعسفية على فرد أو قوم ، ولا تبقى فى صدره إحنة على دين أو جنس .

وهى روح تمكن له من إقرار السلام فى الأرض ، ومن تأليف الأجناس والألوان والأديان ، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بنى البشر ، ومن تنقية جو الحياة من سموم التحاسد الفردى ، والتطاحن الطبقى ، والتناحر العنصرى ، والتعصب الدينى ؛ كما تمكنه من كف الحروب والمجازر التى تقوم على تلك الأسباب ، وعلى الرغبة فى الفتح والتوسع لمجرد الاستغلال المادى أو العظمة الكاذبة .

وفى مبادىء الإسلام العامة ما يصور هذه الروح الإنسانية الخالصة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتَعَارَفُوا [١] » .. « ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هى أحسنُ . إلا الذينَ ظلموا منهم . وقولوا : آمنا بالذى أُنزِل إلينا وأُنزِل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون [٢] » .. « قلْ للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجُون أيامَ الله [٣] » .

وعن جابر بن عبد الله قال : « مرت بنا جنازة فقام النبى وقمنا . فقلنا يا رسول الله : إنها جنازة يهودى . فقال : « أوليستْ نفساً ؟ إذا رأيتم الجنازة فقوموا [٤] » .

وبهذه السماحة الإنسانية الخالصة سار خلفاء الرسول وسار المسلمون فى الغالب ، فلم تند إلا فَلَتات عابرة من التعصب فى غير واجب دينى ، وفى غير ظلم يدفع أو فساد يرفع ؛ وقد وقعت على أيدى أناس لا يعدون ممثلين للإسلام ولا فاهمين لمبادئه العليا وروحه الإنسانية .

رأى عمر شيخاً ضريراً يسأل على باب ، فسأل ، فعلم أنه يهودى ، فقال له :

---

(١) الحجرات ١٣ (٢) العنكبوت ٤٥

(٣) الجاثية ١٤ (٤) البخارى

ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال : «انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخزه عند الهرم . إنما الصَّدَقَاتُ للفُقَرَاءِ وَالمسَاكِين . وهذا من مساكين أهل الكتاب » .

ولما سافر إلى دمشق مر بأرض قوم مجذمين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت .

ولقد كانت هذه الروح السمحة هى التى اجتذبت الناس إلى الإسلام ، ويسرت له أن ينساح فى الأرض بتلك السرعة العجيبة الخارقة ، فقد كان الناس يفرون إليه من الاضطهادات الدينية والعنصرية السائدة حينذاك ، وهم ينتظرون لديه السماحة والعدالة والمساواة .

جاء فى كتاب « الدعوة إلى الإسلام » تأليف (سير ت . و . أرنولد) وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه فى ص ٥٣ وما بعدها :

« وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية اليعقوبى أن يحبذ فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ما كتبه إخوانه فى الدين ، وأن يرى أصبع الله فى الفتوح العربية حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون ، وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل :

[وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام الذى تفرد بالقوة والجبروت ، والذى يديل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم

وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفى الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) ومع ذلك فلم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام] .

« ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن وعسكر أبو عبيدة فى فحل ، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : (يا معشر المسلمين . أنتم أحب إلينا من الرُّوم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا) . وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحبّ إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم .

« وهكذا كانت حالة الشعور فى بلاد الشام ، إبان الغزوة التى وقعت بين سنتى ٦٣٣ ، ٦٣٩ م ، والتى طَرد فيها العرب جيش الرُّوم من هذه الولاية تدريجياً . ولما ضربَت دمشق المثل فى عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧م وأمنت بذلك السلب والنهب ، كما ضمنت شروطاً أخرى ملائمة ، لم تتوان سائر مدن الشام فى أن تنسج على منوالها ، فأبرمت حمص ومنبج (Hieropolis) وبعض المدن الأخرى معاهدات ، قد أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب ؛

بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشُروط مماثلة . وإن خوف الرّوم من أن يكرههم الامبراطور على اتباع مذهبه ، قد جعل الوعد الذى قطعه المسلمون على أنفسهم بالحرّية الدينية ، أحبّ إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرّومانية ، وبأية حكومة مسيحية . ولم تكد المخاوف الأولى التى أثارها نزول جيش فاتح فى بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمّس قوىّ لمصلحة العرب الفاتحين .

« أما ولايات الدولة البيزنطية ، التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ماشاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرّض لهم أحد ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعاً لإثارة أىّ احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، أو إثارة أى تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة ، حتى لا يؤذى ذلك الشعور الإسلامى . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح — الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع — من هذه العهود التى أعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها ، وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرّية الدينية لهم فى مقابل الإذعان ودفع الجزية .

« وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات . وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن ، فهى على جانب من الأهمية ، من حيث أنها تمثل الرّواية التاريخية ، التى أخذ بها المؤرّخون المسلمون فى القرن الثانى الهجرى — وهى رواية كان

من العسير أن تستقر دعائمها ، لو أن هناك دليلاً يقوم على إثبات عكسها —
ولا بأس من أن نورد هنا الشروط التى قيل : إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سلم له بيت المقدس : (بسم الله الرحمن الرّحيم . هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين ، أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا مِن حيّزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضارّ أحد منهم) .

« وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين ، وأربعة من الطبقة الوسطى ، وثلاثة من الفقراء . وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق وقيل : إنه بينما كان فى كنيسة القيامة ، وقد حان وقت الصلاة ، طلب البطريق إلى عمر أن يصلى هناك ، ولكنه بعد أن فكر اعتذر وهو يقول : إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد أنه محل لعبادة المسلمين .

« ومما يتفق مع هذه الرّوح التى تنطوى على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى . ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت . وهو لا ينسى الذّميين (وهم أصحاب الديانات الأخرى الداخلون فى حماية المسلمين) حتى فى أخرى وصاياه إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغى القيام به فى هذا المنصب السامى ، فقال : (وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وألا يكلفوا إلا طاقتهم) » .

وبمثل هذا التسامح ، وهذه العدالة ، استطاع الإسلام فى الماضى ،

ويستطيع فى المستقبل ، أن يحقق السلام العالمى فى الأرض ، لأنه يمنح الناس ما لا تمنحه لهم عقيدة أخرى ولا نظام ؛ ويسلكهم جميعاً فى قافلة إنسانية واحدة ، يحسون فى ظلها بالأمن والسلام .

يقول مستر جب فى كتابه : « حيثما يكون الإسلام » :

« ولكن الإسلام ما زال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة ، أساسها المساواة . فالجامعة الإسلامية العظمى فى إفريقية والهند وإندونيسيا . بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين . وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات . فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدَّرس ، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » .

ولقد رأيت فى هذا المجال أن أقتطف من أقوال رجلين أوربيين مسيحيين . لأن شهادتهما للإسلام قديماً وحديثاً بالسماحة المطْلَقة ، والعدالة التامة فى معاملة المخالفين له فى العقيدة ، شهادة فوق مستوى الشبهات ، ولا يمكن أن تكون صادرة عن حماسة دينية للإسلام ، ولا عن مبالغة فى كشف مزاياه !

والسماحة الإنسانية ، عنصر هام لإقرار السلام ، تفقده كلّ الحضارات التى تظلل العالم اليوم ، هذا العالم الذى تمزقه العصبيات الدينية ، والعصبيات العنصرية ، والعصبيات المذهبية ، ويقف على شفا جرُف هار بسبب تلك

العصبيات الذميمة ، التى تنقصها روح السماحة الإنسانية ، وروح العدالة الحقيقية ، والتى تنطلق وفى إثرها الأحقاد والحزازات ، والمطامع الاقتصادية وغير الاقتصادية ، فتحيل الحياة البشرية جحيماً فى الحرب وجحيماً فى السلم ؛ وتنشر فيه المجاعات والمخاوف ؛ وتقف الأمم بعضها من بعض موقف الحذر الدائم والقلق الدائم ؛ وتثقل على أعصاب الناس فتصيبهم بالضغط العصبى والدموى ؛ وتدعهم فى تربص بأنفسهم وسواهم ، وفى ذعر لا أمن فيه ، وحقد لا سلام فيه ، وظلمة لا بصيص فيها . . ومع هذا كله ، تجد تلك الحضارات البائسة معجبين ومدافعين . وهى تسوم البشرية شقاء بعد شقاء ، وحرباً بعد حرب ، وبلاء بعد بلاء . لماذا ؟ لأنها تملك تسخير الحديد والنار والكهرباء والبخار ، وتملك صنع القنبلة الذرّية والقنبلة الإيدروجينية ، ولا تملك ذرة واحدة من ذرات المحبة ، ولا عنصراً واحداً من عناصر السماحة ، ولا طاقة واحدة من طاقات الإنسانية !

إلا إنه المسخ الذى يصيب الرّوح البشرية فى عصر الظلام الرّوحى والانتكاس . وما هنالك من بلسم يمسّ هذه الرّوح فيشفيها ، وما هنالك من شعاع يضىء ظلماتها وخوافيها ، إلا أن يقود الإسلام البشرية مرة أخرى ، فيردها إلى السماحة الإنسانية ، ويحيل كشوفها وعلومها أداة رحمة وحضارة وسلام .

العنصر الأخلاقى فى المعاملات

لعلّ أبرز ما يميز الرّوح الإسلامية هو سيطرة العنصر الأخلاقى على العلاقات الدولية فى السلم والحرب سواء ؛ والتجرد من الأنانية الصغيرة المحدودة التى تعبد « الدولة » وتعدها غاية مقدسة فوق المثل والمبادىء والأخلاق . .

هذه الرّوح التى تسود علاقات الدول فى سائر النظم التى عرفتها الأرض — عدا النظام الإسلامى — فتفسد جوّ الحياة البشرية ، وتحيلها كحياة الذئاب فى الغابة ، لا عهد فيها ولا ميثاق ، ولا مجال فيها لغير الغدر والنفاق .

ولقد شهدت البشرية فى الحقبة التى سيطرت فيها أوربا مُثلاً من عهود الغابة ، وصوراً من شرائع الذئاب . شرائع الغدر والنفاق والخسة : ونقض العهود وخيانة الوعود ، وتمزيق الاتفاقيات ؛ ووصف المعاهدات بأنها قصاصات من الورق . كما شهدت من وحشية الحرب ما تخجل الوحوش أن تأتيه . وكان آخر هذه الوحشية السافرة قنبلتا هيروشيما وناجازاكى .

وستشهد البشرية فى مستقبلها القريب من ألوان الخيانة والغدر ، ومن صنوف الوحشية والبربرية ما يتفق مع روح هذه الحضارة المادية الكافرة ، التى لا تؤمن بدين ولا خلق ، ولا تقيد نفسها بمبدأ ولا ضمير ، وما يتمشى مع الفكرة المادية الغليظة التى تسيطر على هذه الحضارة ، فتنفى من الحياة كل عنصر غير المصلحة المباشرة والعنصرية اللئيمة .

وستظل فكرة الإنسانية الواحدة ، بعيدة عن التحقق فى ظل هذه الحضارة ، الحقيرة الروح المتعفنة الضمير ، مهما نودى فيها بفكرة الوحدة العالمية ، لأن هذه الوحدة لا بد أن تقوم على عقيدة أدبية ، تكيف الصلات المادية ، وتسير الآلات والأجهزة لبناء الحياة لا لتحطيم الحياة .

وستظل الأطماع الدولية تتحكم ، فتبيح للساسة والقادة ، كل منكر وكل إجرام وكل وحشية ، لأنها موجهة إلى دولة أخرى . وما دامت فكرة قداسة الدولة — لا قداسة الإنسانية — هى التى تتحكم ، فلن يكون هنالك رادع

عن ارتكاب أحط الجرائم فى حقوق الآخرين ، واعتبار المجرم بطلا عظيما ، والغادر سياسياً بارعا ، على نحو ما شهدت البشرية فى تاريخها كله ، فيما عدا الفترة التى سيطر فيها الإسلام ، فكانت قبساً من النور فى غياهب الظلام .

إن الإسلام قوة تحريرية — كما أسلفنا — تنطلق فى الأرض لتحرر البشر من أغلالهم ، وتمنحهم الحرية والنور والكرامة . دون نظر إلى عصبية عنصرية أو عصبية دينية . فإذا اصطدمت هذه القوة بقوى الشر والطغيان والاستعباد كافحت هذه القوى الشريرة وحدها ، مبرأة من كل غاية استعمارية ومن كل غاية اقتصادية . « فقد بعث محمد هادياً ولم يبعث جابياً » كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لعامله الذى أرسل إليه يشكو نقص الجزية لأن الناس آثروا الإسلام !

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه فى التحرير والتطهير لا ينسى أن مصلحة البشرية العليا هى هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية ولا مصلحة المسلمين الخاصة ؛ فلا مجال إذن لفكرة قداسة الدولة التى تبيح المحظور ، وتبرر المنكر ، وتصف الغدر والنفاق والكذب بالبراعة السياسية ، أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية .

إن العهد مقدس ، مهما يفوّت على المسلمين من مصالح قريبة ، ومطامح مرغوبة ؛ وإن الشرف مرعىّ مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب ؛ وإن الشعور الإنسانى ملحوظ ، مهما تكن قسوة المعركة ، وحرارة الضرب والحرب . وقد كسب الإسلام بذلك كله ولم يخسر فى النهاية . كسب الأرواح والقلوب ، وكسب توطيد المبادىء العليا التى جاء لإقرارها فى الأرض ؛ وعوض

فى النهاية ما فقده بالمحافظة على العنصر الأخلاقى فى السلم والحرب من خسائر جزئية ومتاعب وقتية ؛ وشهد فى فترة قصيرة كيف جاء نصر الله والفتح ، وكيف دخل الناس فى دين الله أفواجاً .

***

لقد جعل الإسـلام قانونه فى العالم الدولى ، بل العالم الإنسانى ، هو الوفاء بالعهد : « وأوفوا بالعهد إن العهدَ كان مسؤولا[(١)] » . . « وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمانَ بعدَ توكيدها وقد جعلتم اللهَ عليكم كفيلاً . إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزْلها من بعد قوةٍ أنكاثاً تتخذون أيمانَكم دَخَلاً بينكم، أن تكونَ أمةٌ هى أربَى من أمة[(٢)] » .

فهذه الحجة التى تتخذها « الدولة » فى أوربا لتبرير نقض العهود والمواثيق . حجة مصلحة الدولة ، ينص عليها القرآن هنا : « أن تكون أمة هى أرْبى من أمةٍ » وينص على أن هذه الرغبة لا تبرر نقض العهد ؛ وينهى المسلمين عن الاستسلام لها ؛ ويشبه ناقض العهد ذلك التشبيه المزرى « كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » .

وقد عظم الله الوفاء بالعهد والموفين به ، بقدر ما حقر الذين ينقضون عهودهم ويخفرون ذمتهم ، حتى نبذهم من ساحة الإنسانية وزجهم فى حظيرة الحيوانية : « إنما يتذكرُ أولو الألباب ، الذين يُوفونَ بِعَهْدِ الله ولا ينقضونَ الميثاق[(٣)] » .. « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمرَ الله به

---

(١) الإسراء ١٧ (٢) النحل ٩١ — ٩٢
(٣) الرعد ١٩ — ٢٠

أن يُوصَلَ ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار[١] » ..
« إن شرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدتَ منهم ثم ينقضون عهدَهم فى كل مرة وهم لا يتَّقون[٢] » .

حتى المشركون الذين ناهضوا الإسلام والمسلمين ، وآذوهم كما لم يؤذهم أحد من قبل ومن بعد إلا يوم أن صار الأمر للصليبية فى الأندلس .. حتى هؤلاء الذين يقول الله عنهم للمسلمين : « وإن يَظْهروا عليكم لا يَرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمةً[٣] » حتى هؤلاء يحتم الله على المسلمين أن يفوا لهم بعهودهم ، فى الوقت الذى أعلن حكمه الأخير فيهم ، وهو أنهم لن ينالوا من الله ورسوله بعد ذلك عهداً ولا ميثاقاً ؛ ولكن ماسبق إبرامه فهو مرعىٌّ لا يبدأ بنقضه المسلمون أبداً : « وأذانٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناس يومَ الحجِّ الأكبر أن الله برىءٌ من المشركين ورسولُه . فإن تبتم فهو خيرٌ لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير مُعجزى اللهَ ، وبشِّر الذين كفروا بعذابٍ أليم . إلا الذين عاهدتُم من المشركين ثم لم يَنقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتِمُّوا إليهم عهدَهم إلى مُدَّتهم . إن الله يحب المتقين[٤] » .

وحتى المسلمون حين يستنصرون المسلمين على الأعداء فإن هذا لا يبيح لإخوانهم نقض العهدَ الذى سبق له الأداء « وإن استنصروكم فى الدِّين فعليكم النصرُ . إلا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق[٥] » وهى قمة فى الوفاء بالعهد تقصر دونها الكلمات .

---

(١) الرعد ٢٥ (٢) الأنفال ٥٥ — ٥٦ (٣) التوبة ٨
(٤) التوبة ٣ — ٤ (٥) الأنفال ٧٢

ولم تكن هذه مثـلا نظرية ومبادىء مثالية ، إنما كانت سلوكا واقعياً في حياة المسلمين وفى علاقاتهم الدولية جميعا . والأمثلة على ذلك كثيرة من الواقع التاريخي فى الإسلام . نجتزئ منها ببعضها فى هذا المقام .

قال حذيفة بن اليَمان : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنني خرجت أنا وأبو الحسيل ، فأخذنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمداً . فقلنا ما نريده وما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله فأخبرناه الخبر فقال : « انصرفا . نفى بعهدهم ونستعين الله عليهم » .

ولقد غدر بعض المشركين بصلح الحَديبية وكان العهد فيه أن من جاء قريشا من أتباع محمد قبلته ، ومن جاء محمداً من أتباع قريش لم يقبله ، فظل النبى متمسكا بعهده مع الذين لم ينقضوه ، ولم يقبل تابعا قرشيا جاءه فى أثناء قيامه . قال أبو رافع مولى رسول الله : « بعثتنى قريش إلى النبى ، فلما رأيت النبى وقع فى قلبي الإسلام ، فقلت : يا رسول لا أرجع إليهم ، قال : « إنى لا أخيس بالعهد ، ولا أحبس البرود ، ولـكن أرجع إليهم ، فإن كان فى قلبك الذى فيه الآن فارجع » .

وحينما كان سهيل بن عمرو يفاوض النبى فى صلح الحديبية — وبينما كان يكتب عهد الهدنة وقبل توقيعه — جاءه أبو جندل بن سهل يرسف فى الأغلال ، وقد فرَّ من الـكفار . فلما رأى سهيل ابنه قام وأخذ بتلابيبه وقال : يا محمد . لقد لجت القضية بينى وبينك . فقال محمد : صدقت . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فلم يغن

عنه ذلك شيئاً ، ورده رسول الله وفقاً للشروط التى اتفق عليها ، وإن كان بعد لم يوقعها .

وكتب أبو عبيدة رضى الله عنه ، وهو قائد الجيش عمر رضى الله عنه وهو الخليفة : « إن عبداً أَمَّنَ أهلَ بلدٍ بالعراق . وسأله رأيه . فكتب إليه عمر : إن اللهَ عظَّمَ الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » .

وأحب أن أقف قليلاً عند هذا الحادث لبيان ظاهرتين ذواتى شأن :

فأما الظاهرة الأولى ، فهى تصديق عمر لوعد صدر من عبد مسلم ؛ وأمْره لقائده بتنفيذه . فهو من جانب يحقق تلك المساواة المطلقة بين المسلمين ويمنح الفرد — أياً كان شأنه — ذلك الاحترام الوافى . الاحترام لكلمته وعهده بحيث يسرى عَلَى سائِر المسلمين ، تصديقاً لقول الرسول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم[1] » . وهو من جانب تربية للرّجال بإبراز التبعة الكبرى الملقاة على كلّ فرد ، فكلمته كلمة الأمة الإسلامية ، فعليه إذن أن يتحرج فى إطلاقها ، ويدقق فى إعطائها ، لأن الأمة كلها مأخوذة بها محاسبة عليها .

وأما الظاهرة الثانية ، فهى قولة عمر : « فلا تكونون أوفياء حتى تفوا » وما فيها من معنى بارع يصوّر فكرة الإسلام وطابعه .. إنه لا وجود للكلمة إلا بتحقيق مدلولها فى عالم الواقع . وإلا بالتطابق بين القولة الملفوظة والسلوك المحسوس .. وهكذا كان الإسلام فى كلّ مبادئه العليا . إنها ليست مثلاً

---

(١) البخارى .

للوعظ ، وليست ألفاظاً للبريق . إنما هى نظم للتنفيذ ، وشرائع للتكليف ، وواقع من الواقع فى الأرض ، و إن كانت هدفاً أعلى من وحى السماء .

***

ثم يمضى الإسلام فى طريقه العلوى مع الشرف والكرامة والأخلاق . فلا يبيح الغدر حتى وهو يخشى خيانة الآخرين . فلابد أن يعالنهم بالعداوة ، ويجاهرهم بالحرب ، وينبذ إليهم عهدهم فى وضح النهار ؛ ولا يبيتهم بالغدر ، وهم منه عَلَى عهد وميثاق . فإن جنحوا للسلم فهى لهم بعد ذاك : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ . إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا سَبَقُوا ، إنهم لا يُعْجِزُونَ ، وَأَعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِن رباطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ ، وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لَا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يعلمهُم ، ومَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وأنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ، وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وتوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وإنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الذى أيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالمُؤْمِنِينَ [1] » .

وقد يقع اللبس عند البعض عند سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحرب خدعة » [2] . ولكنه لا لبس فى الحقيقة ؛ فالخدعة فى الحرب تجوز وهى حرب لا سلم . فحين تعلن الحرب فالمجال هنا هو مجال الخطط الحربية والعدو يعلم و يأخذ حذره ، ويدبر أمره . فالخدعة حينئذ مهارة حربية وبراعة عسكرية فى ميدان الحرب لا فى ميدان السلام .

---

(١) الأنفال ٥٨ — ٦٢

(٢) أخرجه أبو داود

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ليباغت الخصوم الذين أخذوا جانب الخصومة الصريحة ، لا ليغدر بالمعاهدين الآمنين ، ويباغتهم من حيث لا يحتسبون .

وهكذا يقف الإسلام القوي موقف الشرف الحازم . فلا غدر ولا ضعف ، ولا تعنت ولا استخذاء . إنما هي عزة الأقوياء ، وشرف الكرام ، وعهد الأوفياء .

كذلك تبدو هذه الظاهرة في تأمين الكافر المستجير ؛ لأنه في هذه الحالة لا قوة له تؤذى ، فمن الشهامة ألا يُؤذى ؛ لأن الإسلام لا يبغى فناء مخالفيه ، إنما يبغى هدايتهم إلى الطريق ؛ وهو لا يعجل إليهم بالأذى إلا أن يبدأوا هم فيعادوه ويقاوموه : « وإنْ أحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكين اسْتَجَارَكَ فأجِرْهُ حَتَّى يسمعَ كلامَ اللهِ ، ثم أبلغه مأمَنَه »(١) فليست هي الإجارة فقط ، إنما هي الحماية كذلك حتى يبلغ محله في أمانٍ .

وإنه لأفق آخر من آفاق السمو لا يبلغه إلا الإسلام .

وكذلك يتضمن القانون الإسلامي الدولي تأمين المبعوثين والمفاوضين وحصاناتهم ، فلا يمسون بسوء في ظرف من الظروف .

جاء ابن النواحة وابن آثال رسولا مسيلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله ؟ قالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « آمنت بالله ورسوله ! لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما » .

***

فأما إن تكن الحرب ، فهي إذن حرب التحرير البشرية . الحرب على

---

(١) التوبة : ٦

النظم الإقطاعية والاستبدادية ، وعبودية البشر لناس من البشر ، وعلى الطغيان والظلم والشطط ، وعلى الخرافات والأوهام والأساطير . حرب التحرير بكل معانيها وفى كل ميادينها . الحرب الخالصة من الهوى ومن الدوافع الاقتصادية والعنصرية والتحكمية . الحرب التى يشرف الإنسانية أن تخوضها لأنها تقرير للصفات الإنسانية وللحقوق الإنسانية وللمبادىء الإنسانية .

إنها ليست الحرب التى تديرها رؤوس الأموال المجرمة لتربح من وراء الصناعات الجهنمية، التى تقتات بالأرواح والأجسام ، وتبتلع الحضارات والمدنيات، وتحطم النفوس والأخلاق . أو تديرها الشركات الاحتكارية لحماية مصالحها فى البلاد المستعمرة ، واستغلال خاماتها من القوى الطبيعية والقوى البشرية ، وفتح أسواقها للمنتجات والمصنوعات . أو تديرها البيوت المالية الربوية ، لتحقيق أرباحها الفاحشة ، وضمان المكسب الحرام ، واستغلال الفرص ، والصيد فى الماء العكر .

إنها ليست الحرب التى تريد لتضرب بسور فولاذى على الشعوب ، دون المعرفة والعلم والحضارة كى يبقى أبناء البلاد المحتلة عمياً صماً بكما ، يساقون سوق الماشية إلى الذبح فى ذل وفى جهل وفى استسلام .

إنها ليست الحرب التى تخوضها الحضارة الغربية القذرة ضد الإنسانية ، جرياً وراء الربح المادى ، والاستعباد العنصرى ، والتعصب الدينى . كتلك الحروب التى عرفها العالم الغربى فى كل تاريخه الملوث الطويل .

إنما هى الحرب التى تحمل معها المساواة والعدالة والكرامة لكل كائن بشرى على سطح هذه الأرض ، وتحققها فى عالم الواقع وعالم المثال .. تحققها

فى التشريع وفى التنفيذ .. تحققها للأسود والأبيض ، والمسلم والمُعاهَد .. تحققها فى صورة واحدة و بأداة واحدة ، وفى مستوى واحد للجميع .

ولقد حرم الإسلام الرّبا والاحتكار ، وحرم الرّبح الفاحش ، وحرم الاستغلال الآثم . و بذلك أبطل أسباب الحروب الاستعمارية المادية الأولى ، وقتلها فى مهدها قبل أن تفرخ ..

فشركات الاحتكار ، و بيوت المال ، هى التى تجرّ فى أذيالها الاستعمار لتحمى مصالح المحتكرين والمرابين والمستغلين . وقد شهدت مصر مصرع استقلالها على أيدى البيوت المالية والرّبا المنكر الأثيم ، وعلى أيدى الشركات الاستغلالية التى تريد قطن مصر للانكشير ، وسوق مصر لصناعاتها ، وقناة السويس لمستعمرات شركة الهند الانجليزية وغيرها فيما وراء البحار . وكذلك شهد كل بلد بلاه الله بالاحتلال الغربى مصرع استقلاله على أيدى تلك البيوت وتلك الشركات .. وهذا ما فطن إليه الإسلام من أول الأمر ، فقلم أظفار الرّبا والاحتكار والاستغلال ، وغلق أبواب الحرب كلها فيما عدا باب واحد : باب الجهاد فى سبيل الله ، لغير ما غرض هابط من أغراض الحياة ..

فإذا كانت الحرب فى هذا الوجه وحده ، فهى إذن حرب إنسانية لا يقصد فيها إلى التنكيل والتقتيل والتدمير ؛ وما يجوز أن تمس الأبرياء والضعفاء ؛ ولا أن تتجاوز غايتها الأولى من إزالة قوى الشر والظلم ، أو إخضاعها لتأمن الإنسانية شرها . وليست هناك من نية للإبادة أو التشفى أو الاستذلال .

روى رباح بن ربيعة : أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها ، فمرّ رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة ، فوقف عليها ثم

قال : « ما كانت هذه لتقاتل ! » ثم نظر فى وجوه أصحابه وقال لأحدهم : « اِلْحق بخالد بن الوليد ، فلا يقتلُنَّ ذرِّية ولا عسيفاً (أجيراً) ولا امرأة » (١)

ورفع إليه صلى الله عليه وسلم بعد إحدى الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزناً شديداً . فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؟ فغضب النبىّ وقال ما معناه : إن هؤلاء خير منكم . إنهم على الفطرة . أولستم أبناء المشركين ؟ فإيا كم وقتل الأولاد . إيا كم وقتل الأولاد (١)

وروى مالك عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال : « ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرِماً »

وفى وصية له لِجُنده : « ولا تقطعنَّ شجراً ، ولا تخربنَّ عامِرًا »

وقال زيد بن وهب : أتانا كتابُ عمر رضى الله عنه وفيه : « لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً . واتقوا الله فى الفلاحين »

ومن وصاياه : « لا تقتلوا هرِماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات »

---

(١) روى ابن عمر رضى الله عنهما وأخرجه الستة إلا النسائى قال : « وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان » . وروى بريدة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال له : اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

ولم تكن هذه تعاليم نظرية تذوب عند الواقع وتتوارى .. إنما كانت سلوكا عملياً فى الحروب الإسلامية قديما وحديثاً ، لم يشذ عنها إلا النادر الذى لايقاس عليه ، ولا يبطل القاعدة التى جعلها الإسلام غايته وحققها فى واقعه .

فإذا نحن ألقينا من هذه القمة الشامخة التى يقف عليها الإسلام فى سلمه وحربه ، نظرة على المستنقع الآسن الذى تلغ فيه الحضارة الغربية سلماً وحرباً أدركنا بُعْدَ الشقة بين نظام ينزله الله للبشر ، ونظام يضعه الناس للناس . وأدركنا كم خسرت البشرية يوم تنكرت لنظام الله ، وهى تتعثر فى تكبُّر مضحك وفى تعالم مضحك ، تريد أن تقول : إنها تريد لنفسها خيراً مما أراد الله ، وإنها تملك لنفسها خيرا مما أعطاها الله !

وستظل هذه البشرية تظلع فى طريق كلها منحدرات وآكام ؛ وتلغ فى كل مستنقع آسن من صنع الحضارة الكافرة المغرورة الضالة عن الله .. إلا أن يتسلم الإسلام الزمام ، فيقود البشرية الحائرة إلى مثابة العدل والنظام والسلام .

والآن .....

الآن . . بعد استعراض فكرة السلام فى الإسلام ، والإلمام بفكرة الإسلام الكلية عن الحياة . . الآن بعد معرفة المدلول الكامل لكلمة السلام فى الإسلام . هذا المدلول الذى يشمل إقرار السلام فى الأرض على أسس من العدالة المطلقة ، ومن الخير الشامل ، تحقيقاً لكلمة الله . وإلا فالجهاد الدائم لتحقيق هذه الكلمة ، والكفاح الدائم لدفع البغى والعدوان ، والصراع الدائم مع الفساد والشر والطغيان .

الآن ما طريقنا نحن الأمة المسلمة ؟ ما موقفنا من الصراع العالمى الذى يدور حولنا ؟ ما واجبنا تجاه الحياة ، وتجاه الإنسانية ، وتجاه أنفسنا ؟

لقد قلت فى مطالع هذا الكتاب : إن عقيدتنا الإسلامية تملك أن تسعفنا بحلول عملية لمواجهة مشكلاتنا الداخلية والخارجية . وقد تبين من هذا الاستعراض أن هذه العقيدة لا تفصل بين المشكلات الداخلية والمشكلات الخارجية ، فهى تربط بينها فى حياة الإنسانية ، وتربط بينها فى وسائل العلاج .

ولقد شهدنا روابط كثيرة بين مسألة السلام العالمى فى المحيط الدولى ، وبين حياة الفرد فى ضميره ، وحياته فى الأسرة ، وحياته فى الجماعة . وشهدنا روابط كثيرة بين مثيرات النزاع والصراع فى الميدان الدولى وكثير من المشاعر والنظم والاقتصاديات فى داخل الجماعة .

فالآن ما طريقنا ؟ كيف نواجه مسألة السلام العالمى بعقيدتنا الإسلامية ؟ وكيف نتصرف فى المجال الدولى طبقاً لهذه العقيدة ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أحب أن نواجه الواقع العملى فى محيط الـكتل التى تتصارع اليوم فى المجال الدولى . أحب أن نستعرض المبادىء التى يقوم عليها هذا الصراع ، والعوامل التى تدفعه وتؤثر فيه .

فعلى ضوء هذه المواجهة يمكن أن نعرف رأى الإسلام فى تلك المبادىء ، ورأيه فى هذه الدوافع ؛ وأن نعرف كذلك موقفنا الذى يجب أن نتخذه ؛ وندرك إن كان الموقف الذى تمليه علينا عقيدتنا هو ذات الموقف الذى يحقق مصالحنا ؟ أم إن هنالك تعارضاً بين واجبنا لعقيدتنا ، وواجبنا لمصالحنا ، إن كان هنالك مثل هذا التعارض !

فإذا اتضح أن الحلول التى تمليها علينا عقيدتنا الإسـلامية ، هى ذات الحلول التى تمليها علينا مصالحنا ، بل هى ذات الحلول التى تمليها مصلحة الإنسانية العليا وخير البشرية جميعاً . فإننا نسير إذن فى الطريق على هدى ، ونسير فيها بقوة ، ونسير فيها باطمئنان .

وفى هذه الحالة يصبح الهتاف بتنحية العقيدة الإسلامية عن مجرى حياتنا السياسية أو الاجتماعية لغواً لا يستند إلى دليل ، وهذراً لا يستحق الاحترام .

فلنأخذ على بركة الله فى استعراض الواقع البشرى الذى نواجهه ، لنعرف فيه رأى المصلحة الإنسانية والمصلحة القومية ، ورأى الإسلام .

على حافة الهـــاوية

ناقوس الحرب يدق . ها هوذا يقرع سمع البشرية المنكودة الطالع . ولقد سمعته من قبل فى أمريكا حتى قبل قيام الحرب الـكورية . وكل من عاش فى أمريكا فى خلال العامين الأخيرين كان يدرك بوضوح أن أمريكا

ستحارب . كل شىء كان ينطق بهذه الحقيقة أو يوحى ؛ فقد كانت التعبئة العامة لكل قوى الشعب وموارده قائمة على قدم وساق ؛ وما كان يغطى هذه التعبئة إلا ستار رقيق من الديبلوماسية ، قد يحجب الحقائق فى خارج أمريكا أما فى داخلها فقد كانت أبرز من أن يحجبها ذلك الستار .

وكل من كان يتتبع الصحافة الأمريكية ، وأجهزة الدعاية الأخرى فى الإذاعة والسينما — بل فى داخل الجامعات والمعاهد — كان يدرك بوضوح أن هذه أمة تستعد للحرب — للحرب القريبة — وأنها تعبىء الرأى العام ، وتعده إعداداً ثابتاً كاملا شاملا ؛ وأنها إن لا تكن هى الحماقة المؤكدة فى إنفاق كل هذه الجهود ، فإنها الحرب المؤكدة إذن ، وعن قريب !

إن أمريكا تريد أن تحارب ؛ ولو طاوعتها أوربا لما صبرت عن الحرب حتى حادث كورية ؛ فلقد كانت تريدها حرباً كاملة منذ أزمة برلين المعروفة ؛ ولكن أوربا المحطمة كانت أعجز من أن تلبى رغبة أمريكا الملحة وهى ما تزال تلعق جراحها ، وتعالج مآسيها ، فضلا على أن للشيوعية فيها قوى مذخورة ، تتهيأ للحظة المنظورة ؛ وإغراء الدولار كان يملك أن يصنع كل شىء فى أوربا ، إلا أن يدفعها إلى حرب عالمية ثالثة . . ولهذا وحده صبرت أمريكا .

إن رؤوس الأموال الأمريكية فى حاجة ملحة إلى حرب جديدة . هذه هى المسألة . إن الفتوحات العلمية التى أسرعت خطاها فى الحرب الماضية ، والتجارب التى أفادتها الصناعة من تعبئة الموارد فى أيام هذه الحرب ، قد هيأت للصناعة الأمريكية فرصاً جديدة لمضاعفة الإنتاج ، فى الوقت الذى أصبحت مسألة التصريف مسألة عسيرة .

ومع أن الأسواق كانت بعد الحرب خاوية ، وفى حاجة ماسة إلى الإنتاج المدنى ، وخالية من المنافسة الأوربية . إلا أن القدرة على الشراء كانت ضعيفة ، وبخاصة فى أوربا المحطمة . ومعنى هذا هو الكساد بالقياس إلى الإنتاج الأمريكى ؛ ومعنى الكساد هو الخسارة المؤكدة لرؤوس الأموال الأمريكية . .

ومن هنا كان « مشروع مارشال » ، وكانت لهذا المشروع غايات أساسية ثلاثة :

الغاية الأولى : كانت هى تصريف الإنتاج الأمريكى الفائض ، دون أن تدفع الدول المنتفعة به ثمنه نقداً بالدولار الأمريكى ، فقد كانت الحكومة الأمريكية تفتح الاعتمادات للدول الأوربية ، لتنفقها هذه الدول فى شراء الإنتاج الأمريكى فى الغالب . وحقيقة إن رؤوس الأموال الأمريكية كانت تتحمل ضرائب عالية لتمكين الحكومة من تنفيذ مشروع مارشال ؛ ولكنها مع هذه الضرائب العالية كانت تحقق ربحاً لا شك فيه بتنفيذ المشروع ، وتتقى الخسارة التى تنشأ من الكساد !

والغاية الثانية : كانت هى اتقاء حالة التبطل بين عمال أمريكا ، ومايتبع التبطل من هزات اجتماعية ، بعد وقف الإنتاج الحربى الذى كان يستغرق هذه الأيدى العاملة ؛ وكان هذا يقتضي إيجاد متصرف للإنتاج المدنى يسمح بتشغيل المصانع إلى الحد الأقصى ، فكان مشروع مارشال وتغذية دول أوربا بالآلات ، هو الوسيلة لتحقيق هذا الهدف ، الذى ينطوى بدوره على تحقيق نوع من الربح لرؤوس الأموال الأمريكية !

والغاية الثالثة : كانت هى تعمير أوربا ، و إعادة سير الحياة فيها — و بخاصة حياة العمل — تحقيقاً للنشاط الاقتصادى العالمى كله من ناحية ، ومقاومة للشيوعية فى أوساط المتعطلين من ناحية أخرى .. وكان مشروع مارشال يعاون على تحقيق هذه الغاية .

ومن هنا يعد «مارشال» صاحب هذا المشروع — فى نظر الأمريكان — أحد رجال التاريخ الأمريكيين . وقد عدته مجلة «لوك» Look أحد « العشرين الذين صاغوا القرن العشرين» لا فى أمريكا وحدها ، بل فى العالم على الإطلاق .

***

ولكن مشروع مارشال لم يكن يمكن امتداده إلى الأبد ؛ فطبائع الأشياء تقتضى وقوفه عند حد معين ، عند ما تصل الأسواق الأوربية إلى درجة التشبع من جهة ، وعند ما تصل أداة الإنتاج الأوربية إلى درجة الإنتاج الكامل من جهة أخرى . وقد استعادت أوربا أو أوشكت أن تستعيد قدرتها الكاملة على الإنتاج ؛ وعادت إلى الموقف الذى تصبح فيه مصدرة لا مستهلكة ، ومزاحمة للانتاج الأمريكى ، لا فى الأسواق الأوربية وحدها ، بل كذلك فى أسواق العالم الأخرى .

عند ذلك لعبت بريطانيا لعبتها الماكرة التى استغلت فيها سذاجة العقلية الأمريكية ، وقلة خبرتها الدولية . تلك هى لعبة تخفيض قيمة الجنيه الاسترلينى بالنسبة لقيمة الدولار . فلقد تركت أمريكا تقدم عليها تحقيقاً للقيمة الواقعية للدولار فى الأسواق لا القيمة الرسمية ؛ وتظاهرت بالذعر منها والإشفاق ، وهى تكتم عن حليفتها نية أخرى ! تلك النية التى لم تتبينها أمريكا إلا أخيراً !!

أما النتيجة فكانت هى إغلاق الأسواق فى وجه البضائع الأمريكية التى أصبحت أسعارها مرتفعة بالقياس إلى العملة فى منطقة الاسترلينى . احتفاظاً بهذه الأسواق للبضائع الانجليزية ، التى لم تتأثر أسعارها بتخفيض قيمة الجنيه الاسترلينى فى منطقة الاسترلينى . أما فى سواها فقد صارت أرخص بكثير من مثيلها الأمريكانى !

وعند ما تنبهت أمريكا أخيراً إلى هذه الخديعة ، أخذت ترد عليها باستنزاف الخامات من الأسواق العالمية ، مستعينة بقدرتها الفائقة على الشراء ، وبقوة نقدها فى الأسواق العالمية ؛ ذلك كى ترفع سعر هذه الخامات فى وجه الصناعة البريطانية ؛ وتجعلها أقل قدرة على المنافسة ، لأن ارتفاع ثمن الخامات يجبر الصناعة الانجليزية على رفع أسعار المنتجات ؛ وبذلك يقع شىء من التعادل بين الأسعار الأمريكية والأسعار الانجليزية . وقد ارتفع سعر خامات الصوف مثلا خمسمائة فى المائة ، لأن الصوف صناعة انجليزية رئيسية . وكذلك ارتفعت أسعار معظم الخامات التى تقوم على أساسها الصناعة البريطانية بتأثير هذه الخطة الأمريكية التى جاءت رداً على الخدعة الانجليزية ! وكان هذا سبباً رئيسياً فى موجة الغلاء التى عمت العالم أخيراً ، بجانب الأسباب الطبيعية الناشئة من الاستعداد للحرب العالمية !

إلا أن هذا الإجراء الأمريكى لم يكن ليزيد على أنه إجراء وقتى ، لمواجهة هجوم معين ؛ ولكن الحالة العامة فى الأسواق بالقياس إلى استقبال الإنتاج الأمريكى لم تتأثر تأثراً يذكر . وقد صادف ذلك صدمة كاملة باكتساح الشيوعية لذلك القسم الهام من أسواق العالم وهو الصين ، الصين ذات الخمسمائة

مليون من السكان . ربع سكان الأرض على وجه التقريب . وحقيقة إن الصين لم تكن سوقاً أمريكية رئيسية ، ولكن كان المرجو بعد هزيمة اليابان أن تصبح كذلك . فلما اكتسحتها الشيوعية أغلق هذا المنفذ ، وأحست رؤوس الأموال الأمريكية بشيء من الاختناق ، كما أحست الدوائر الاجتماعية بالخطر من انتشار البطالة ، وقد بلغت الأيدى المتعطلة قبيل الحرب الكورية نحو خمسة ملايين (نقصت إلى ثلاثة ملايين بعد ابتداء هذه الحرب) .

ومن هنا لم يكن بد لأمريكا أن تحارب . وإذا كانت الحرب الكورية قد اجتذبت نحو مليونين من الأيدى المتعطلة ، فإنها لا تصلح وحدها علاجاً للموقف ؛ ولا بد من حرب شاملة تجتذب جميع الأيدى العاملة من جهة وتضمن لرؤوس الأموال أرباحاً كاملة من جهة أخرى ! فالحرب بالقياس إلى أمريكا اليوم هى ضرورة حياة قومية ، فضلاً على الرغبة القوية فى وقف تيار الشيوعية العالمية بطبيعة الحال . هذا التيار الزاحف ، الذى يغمر فى كل يوم أرضاً جديدة ، ويقفل فى كل يوم سوقاً جديدة .

وإذا كانت أوربا تتلكأ فى الاستجابة لأمريكا ، فتؤجل بهذا التلكؤ موعد نشوب الحرب المطلوبة ؛ فإنها لن تتلكأ طويلا ، لأنها ستجد نفسها قريباً مدفوعة إلى الحرب بنفس الأسباب التى تدفع أمريكا . وفى اليوم الذى يبلغ الإنتاج الأوربى الرأسمالى ذروته ، سيواجه الموقف ذاته بالنسبة إلى الأسواق . وما دامت الشيوعية تزحف ، وهى لابد أن تزحف ، تملى لها تلك الأحوال الاجتماعية السيئة فى معظم بلاد العالم ، وفوارق الطبقات السحيقة التى تثير الحنق فى الصدور ؛ ويغذيها ذلك الجشع الغبى الذى تستمسك به

الرأسمالية والإقطاعية ؛ وبخاصة فى مناطق الشرق .. ما دامت الشيوعية تزحف ، فهى تغلق فى كل يوم سوقاً جديدة فى وجه الإنتاج الرأسمالى فى أوربا أو أمريكا .. وهنا تلتقى مصلحة رؤوس الأموال هنا وهناك فى محاولة وقف هذا التيار ، واسترداد الأسواق بقوة السلاح . أو على الأقل بالاستهلاك الحربى ، وإنتاج الأسلحة والذخائر وأدوات الموت والدمار . تلك التى تضمن للمصانع أن تعمل ، ولرؤوس الأموال أن تربح ، وللملايين أن تموت !

فموقف أوربا الحاضر ، وتلكؤها فى الاستجابة لهاتف الحرب ، ومحاولتها تهدئة الأعصاب الأمريكية الثائرة .. كل أولئك عوامل وقتية للسلام ، وليست ضمانات حقيقية لهذه البشرية المنكودة الطالع ، التى تدفع بها إلى المجزرة مصالح رؤوس الأموال ومطامعها ، وما يكمن وراء هذه المصالح والمطامع من مادية فكرية ، لا تقيم وزناً لأى عامل أدبى أو روحى ، على الرغم مما تملأ به دعايتها من تلويح باسم المبادىء الأدبية ، والأهداف الإنسانية .

فى مفرق الطرق

وتقف الكتلة الشيوعية اليوم فى جانب ، وفى الجانب الآخر تقف الكتلة الرأسمالية ؛ وتحاول كلتاهما أن تستدرج البقية الباقية من العالم إليها ؛ وأن تستخدم فى المجزرة موارد هذه البقية . مواردها البشرية والاقتصادية والجغرافية جميعاً .

فأما الكتلة الرأسمالية بقيادة أمريكا فتستخدم عدة وسائل لهذه الغاية :

تستخدم أولا عامل التخويف للرأسماليين فى كل أنحاء العالم ، وبخاصة فى العالم العربى الإقطاعى ، من الشيوعية التى تزحف يوماً بعد يوم ؛ وتناشدهم

المصلحة المشتركة بين الاستعمار والرأسمالية ، وتلجأ فى ذلك إلى المحالفة الطبيعية بين الرأسمالية المحلية والرأسمالية العالمية .

وتستخدم ثانياً الضغط السياسى والاقتصادى ، وأحياناً الضغط المسلح ، فى البلاد الواقعة فى ربقة الاستعمار المباشر وغير المباشر ، كما هو الشأن فى مجموعة البلاد العربية .

وتستخدم ثالثاً إغراء الدولار تحت عنوانات كثيرة . منها ذلك العنوان الجديد الذى خلف مشروع مارشال ، وهو عنوان « النقطة الرابعة » فى مشروع ترومان !

وهى على العموم تخاطب الطبقات الحاكمة والمستغلة ، ولا تعتمد كثيراً على الجماهير ، لأن مصالح هذه الطبقات معلقة بانتصار الكتلة الرأسمالية . وتبذل جهوداً جبارة فى هذا السبيل ، وإن كانت لا تريد فى الوقت ذاته أن تلقى بالاً إلى مطالب الشعوب القومية ، لفرط ثقتها بالطبقات الحاكمة والمستغلة ويقينها أن هذه الطبقات لن تعادى الاستعمار عداء حقيقياً فى سبيل مطالب شعوبها القومية . وسيظل موقفها كذلك إلى أن تتولى هذه الشعوب قضاياها بأنفسها ؛ وتبرهن على أنها لا تستنيم لشعوذات المشعوذين من زعمائها وكبرائها ؛ وأنها معتزمة أن تسبب للاستعمار وللجبهة الرأسمالية متاعب حقيقية ؛ وتعرض مصالح هذه الجبهة وجيوشها لأخطار حقيقية فى حالة نشوب الحرب . . وعندئذ فقط قد تفكر الكتلة الرأسمالية الاستعمارية فى الإنصات قليلاً لصيحات هذه الشعوب !

إن هذه الكتلة تريد أن تضمنا إليها لتستطيع أن تجند من العرب وحدهم مليوناً كما ورد فى بعض البرقيات ؛ ثم لتتخذ من بترولنا ومواردنا الغذائية ،

ومواقعنا الاستراتيجية عُدَّةً للنصر فى المذبحة العالمية المنتظرة ؛ وبخاصة بعد تلك الصفعة القاسية التى أصابتها فى إيران وما تزال تترنح منها .

ولقد قيل فى الحرب الماضية : إن المحاربين كانوا يطهرون حقول الألغام أحياناً فى الصحراء الغربية بإطلاق الجمال والبغال فيها ؛ فإذا عزت عليهم الجمال والبغال أطلقوا زنوج المستعمرات الإفريقية ، يطهرون بأشلائهم المتطايرة حقول الألغام !

وسواء صح هذا أم لم يصح فإن وظيفة جُند المستعمرات كانت دائما هى تطهير حقول الحرب وتمهيدها للسادة البيض ؛ واحتمال الصدمة الأولى فى المعارك الحامية .

وفى هذه الحرب الكورية الحديثة تلقى الألاى التركى الذى ذهب إلى هناك نفس المصير ، وقام بنفس الدور . ولن يختلف مصير المليون من الخراف العربية التى سيقدمها السادة هنا لحلفائهم الطبيعيين عن مصير جُند المستعمرات والألاى التركى ، فى الحرب القادمة لو قُدّر لها أن تثور !

وأما الكتلة الشيوعية فتخاطب الجماهير الكادحة . تخاطب الملايين التى تنتج كل شىء وتجوع . تخاطب المعدات الخاوية ، والأجساد العارية . تخاطب الضحايا التى طال عليها الإهمال ، وطال عليها الحرمان ؛ وأصبحت تستجيب لكل من يُلَوّح لها بالرغيف ، وكل من يعدها الخلاص من الترف الفاجر الداعر الذى تزاوله على مرأى منها ومسمع فئة قليلة العدد ، فاحشة الموارد ، بينما الشظف الكافر السافر يحيل هذه الملايين الكادحة حطاماً ، ثم يفتت ذلك الحطام !

وهى تستخدم كذلك أخطاء الاستعمار وجرائمه ، ورغبة الشعوب المستعبدة فى إلقاء هذا النير عن أعناقها ، والاستمتاع بالحرية الطبيعية التى يغتصبها الاستعمار الفاجر الآثم ، بمعاونة الخونة من المستغلين فى هذه البلاد . كما تستفيد من مقاومة الصليبية الغربية والرأسمالية المحلية لـكل دعوة إسلامية حقيقية ، وكل عدالة اجتماعية إسلامية .

وعلى أية حال فإن كلتا الـكتلتين تحاول أن تلقى فى روع البقية الباقية من العالم ، أن ليس للبشرية كلها إلا أن تسلك طريقاً من طريقين ، وأن تنضم إلى كتلة من الـكتلتين ؛ وأنه لا مفر من أن تنتصر الجبهة الغربية ، أو أن تنتصر الجبهة الشرقية ليسود السلام ، وتنعم البشرية بالأمن ، وتصل الإنسانية إلى استقرار ؛ وأن انضمام البقية الباقية من العالم هو السبيل الوحيد لتغليب إحدى القوتين على الأخرى بصفة حاسمة ، لإنهاء حالة القلق والتأرجح والاضطراب .

فأين وجه الحق فى هذه الدعوى ، وأين وجه المصلحة القومية والمصلحة الإنسانية فى هذا الادعاء ؟

إنه ليس من مصلحتنا نحن ولا من مصلحة الإنسانيـة أن تغلب الآن إحدى الـكتلتين على الأخرى ، وتمحوها من الوجود محواً ؛ فنحن فى دور استكمال وجودنا الطبيعى فى الحياة ، واستنقاذ مصالحنا المغصوبة بأيدى المستعمرين ، ليس من مصلحتنا أن تهزم الجبهة الشرقية هزيمة نهائية ، ولا من مصلحة الإنسـانية كذلك . وإن وجود هذه الـكتلة بهذه القوة فى هذه الفترة لهو إحدى الضمانات لنا لنستخلص هذه الحقوق يوما بعد يوم ؛ كما أنه الضمانة المؤقتة للبشرية ألا تسيطر عليها قوى الاستعمار الجائر الغاشم الظالم .

وإذا كان فينا من يحسن الظن بأمريكا ، ويظن أن سيطرتها ستحد من شرة الاستعمار ، فلينظر كيف تقف أمريكا فى صف هذا الاستعمار ، وكيف تمده بقوة الحديد والنار عند الاقتضاء . على أننى أعيذ البشرية أن يستبد بها الصلف الأمريكى السخيف ، الذى قد لا يقاس إليه الصلف البريطانى ذاته فى أرض المستعمرات . إن عداوة الأمريكى للملونين عداوة كريهة بغيضة ، وإن احتقاره للملونين لتهون إلى جانبه تعاليم النازية ؛ وإن صلف الرجل الأبيض فى أمريكا ليفوق كل ما كانت تتصوره الهتلرية . وويل للبشرية يوم يوقعها سوء الطالع فى ربقة هذا الصلف الأمريكانى ، بلا قوة فى الأرض تخشى ويعمل لها حساب .

كذلك نحن فى حاجة مؤقتة إلى وجود القوة الشيوعية فى الأرض ، لتخويف الطغاة والمستغلين ، واسترداد حقوق الجماهير المسلوبة ، فى ظل هذا التخويف ! وإننا لندين لوجود هذه القوة بالشىء الكثير من مشروعات العدالة الاجتماعية الضئيلة التى تحاولها السلطات فى هذه البلاد ، ولولا الخوف من الشيوعية ما تم منها كثير ولا قليل !

ولكن هذا كله ليس معناه أنه من الخير لنا وللإنسانية أن ينتصر المعسكر الشرقى انتصاراً حاسماً كاملا ؛ وأن يتحقق ذلك الحلم الشيوعى الواهم ويدين للشيوعية الجميع .

إن هذا المعسكر لا يبغى لنا الخير ، ولا يطيق أن تكون لنا فيه كرامة ، إنه يريدنا جنوداً له أو عبيداً ، لا أن يكون لنا وجود ذاتى وكيان محترم . ولقد دلتنا تجربة فلسطين على حقيقة ما تضمره لنا روسيا الشيوعية . لقد وقفت منا

موقف العداء فى مجلس الأمن ، كما أن أسلحة الكتلة الشيوعية لليهود هى التى وقفت فى وجوهنا بفلسطين ؛ ذلك أن روسيا كرهت أن يكون للأمة العربية كيان ، وأشفقت أن تستحيل الكتلة العربية قوة حقيقية تستعصى على السيادة الشيوعية فى المستقبل ؛ فآثرت أن تتبخر كل دعاواها فى حقوق الشعوب الطبيعية ؛ وأن تخسر أساساً من أسس دعايتها ضد الاستعمار ؛ وأن تسمح بقيام دولة إسرائيل على أساس الدين وحده — وهو أنكر ما تنكره الشيوعية — آثرت ذلك كله على تقوية الكتلة العربية ؛ وضربتها تلك الضربة القاسية المنكرة ، لتقوم إسرائيل فى جنبها كالشوكة ، تمزق وحدتها الجغرافية ، وتفصل حدودها المتصلة ، وتحرمها التماسك والقوة والشخصية . إن روسيا عدوة وحدتنا وقوتنا ووجودنا الذاتى . وكل ما تلوكه ألسنة دعايتها هو مجرد أسلحة فى صراعها مع الكتلة الغربية ، كدعاية هذه الكتلة ضدها سواء بسواء .

إنه لا بأس فى نظر الشيوعية الروسية أن نأبى على الكتلة الغربية استخدام مواردنا فى الحرب ضدها . أما أن يكون لنا كيان ذاتى ، وقوة شخصية ، ووجود قومى فلا ! وإن دعاتها فى بلادنا ليفزعون ، كما لو كانت قد لدغتهم أفعىٰ ، إذا سمعوا دعوة التكتل الذى يوجد لنا شخصية قومية . إنهم لا يريدوننا إلا ذيولاً ذليلة تنعق بالشيوعية ، وتؤدى لها التسهيلات الممكنة فى أرضنا حين يستعر القتال ! وهو وضع تأباه علينا مصالحنا ، بل يأباه مجرد الشعور بأننا ناس ، لا سوائم ولا أشياء !

والشيوعية قد يكون لها اليوم لألاء فى عيون الكادحين المحرومين ، الذين تصاغ دماؤهم يواقيت للنحور والصدور ، ويقطر عرقهم كؤوساً للسكارى

والمخمورين . . ولكن تصور البشرية كلها نسخاً مصبوبة فى قالب الشيوعية الواحد ، لايسمح لفكر واحد فيها أن يشذ ، ولا لقلب واحد فيها أن ينبض بخالجة لايرضاها ستالين . . هذا التصوّر وحده تقشعر منه الأبدان ، ويشفق من تحققه كل إحساس آدمى سليم !

على أن طبيعة الحياة تأبى الانتصار الكامل الحاسم لقوّة واحدة من هاتين القوّتين الماديتين ، اللتين لا يفرق بين طبيعتهما إلا اختلاف المصالح والمطامع ؛ وإن الهزيمة لتنبت فى زحمة النصر ، كما أن النصر ينبت فى ركام الهزيمة . وها نحن أولاء نرى أن الحلفاء الذين بذلوا ما بذلوا ليقهروا ألمانيا واليابان ينحنون اليوم على الحطام والأشلاء ، ليستنقذوا منها المارد الذى صرعوه بالأمس ، كى يستعينوا به على المارد الجديد . . نفس الذى فعلوه بعد الحرب العالمية الأولى . . ولئن انتصروا غداً على الجبهة الشرقية ، فليواجهن ألمانيا من جديد ؛ ولئن انتصرت الشيوعية فلينبتن لها عدوّها من ذات نفسها . من الضغط والكبت اللذين لا تطيقهما البشرية طويلاً . وقد بدأت يوغوسلافيا حتى قبل المعركة ، وسيتبعها التشقق فى المعسكر الشيوعى ، لنفس الأسباب ، أو بسبب الجمود والتوقف الناشئين من صبّ البشرية كلها فى قالب واحد ، تسيطر عليه فكرة واحدة ، لاتسمح بأى تطوّر بعد مرحلة الشيوعية ، التى تعد ختاماً للحلم الماركسى لا تتعدّاه ! وإنها للعنة لاتصاب بها الإنسانية إلا وقد أريد بها شر عظيم .

إنه لمن السذاجة أن نتصوّر أننا نستطيع أن نجنى ثمرة السلام العالمى من وراء اصطدام هاتين الكتلتين الضخمتين فى حرب حاسمة أخيرة . ولقد كان الطيبون الأبرياء فى العالم يتخيلون هذه الثمرة الحلوة يانعة بعد كل من الحربين

الماضيتين ؛ فلم تطلع شجرة الحرب إلا ثمرات مرة ، تجرَّعها هؤلاء الطيبون الأبرياء ؛ وكان الجنى الحلو كله للطغاة والمستغلين ، من الشرقيين أو الغربيين .

طريق الخلاص

إن طريق الخلاص للبشرية المنكودة الطالع لن يكون هو الانضمام إلى هذا المعسكر أو ذاك ، ليسحق أحدهما الآخر سحقا ، و يخلو له وجه العالم ، يسيطر عليه وحده و يسيّره كما يريد .

إن المعركة فى صميمها ستدور فى أرض غير أرض الكتلتين . ستدور فى تركيا و إيران والعراق وسورية ، ومصر والشمال الإفريقى . وفى باكستان وأفغانستان . وفى منابع البترول العربية فى عبادان والظهران .. إنها ستدمر مواردنا نحن ، وتحطم حياتنا نحن ، وتدع أرضنا بلقعاً خراباً يباباً . وسواء علينا انتصرت هذه أم انتصرت تلك ، فسنخرج نحن من المعركة فتاتاً وحطاماً . لا كما خرجت أوربا من الحروب الماضية ، ولكن كما لم تخرج أمة من حرب قط . وإذا كانت هيروشيما قد ذهبت مثلا ، بقنبلة ذرية صغيرة ، فسنكون نحن تلك الفئران الصغيرة ، لتجارب القنابل الذرّية ، والقنابل الهيدروجينية ، وغاز الموت الزّاحف ، وأشعة الموت السحرية ، وحرب الميكروبات الطائشة ، وسائر ما يتمخض عنه الذهن الكافر فى دنيا الضمير الغربى الملوث .

إن دعاة الكتلة الغربية هنا يمنوننا حل قضايانا المعلقة مع الاستعمار ، إذا نحن انضممنا إلى معسكر الرأسمالية الذى يدعونه معسكر الديمقراطية ! كأننا لم ننضم إلى هذا المعسكر مرتين متواليتين ، وكأننا لم نلدغ من ذلك

الجحر مرّتين . وأنا أعرف السبب فى ذلك الموقف الغريب المريب .. إنه تلك المحالفة الطبيعية بين الرأسمالية المحلية والاستعمار الغربى . إنه المصلحة المشتركة بين المحتلين والمستغلين . إن الطغاة والمستغلين هنا لا يطيقون أن ينزلوا عن القليل مما مردوا عليه من طغيان واستغلال ؛ وهم يدركون جيداً أن الاستعمار هو سندهم الطبيعى ، وأنه هو الذى خلقهم وأنشأهم ، ومنحهم النفوذ والثراء . فهو الذى كافأ الخونة الذين خدعوا جيش عرابى ، وساعدوا جيش الاحتلال فى مصر ؛ ووهب لهم الضياع والأموال ، حتى لقد أصبحوا اليوم يدعون أبناء البيوتات ، ويلقبون بالأسر الكريمة ! والاستعمار يصنع هذا فى كل مكان ، وأقرب الأمثلة الأخيرة ذلك « الجلاوى » الخائن فى مراكش ، الذى لا يستحى أن يفخر بمصرع نجله فى حملة فرنسية على الوطنيين المسلمين فى البلاد !

وماذا على السادة أن تصبح الجماهير وقوداً للحرب الجديدة ؟ إن الحروب تضاعف أموالهم ؛ وتؤدى عنهم الدّيون التى تثقل أراضيهم وشركاتهم ، إن كانوا قد أسرفوا على أنفسهم بخسائر القمار ، أو بالمتاع الفاجر الداعر الذى يذهب بالأموال . وإنهم ليطمئنون فى ظل الأحكام العرفية التى تصاحب الحرب إلى حماية أشخاصهم من الفضائح ، وإلى تكميم الأفواه وتحطيم الأقلام ، وإلى البطش بالأحرار الذين يوقظون الجماهير لحقوق الجماهير . وإنهم لفى مأمن من ويلات الحرب بأرواحهم ، كما هم فى مأمن منها بأموالهم ؛ فضريبة الدم لا يؤديها فى بلاد الشرق إلا الفقراء ! ولقد رأينا فى معارك فلسطين كيف كان الضباط من « أولاد الذوات » يجنبون ويلات الحرب

فى الميدان ، ثم يمنحون أوسمة الشجاعة ، وهم فى القاهرة غارقون فى المواخير « والكباريهات » !

فماذا على السادة أن يربطوا بلادهم بعجلة الرأسمالية — حليفتهم الطبيعية — وهم فى مأمن من كل خسار ؟ وماذا على الرأسمالية الغربية أن تزدرى صيحات الشعوب للحرية ، وفى يدها زمام السادة ، الذين يعرفون أولياء نعمتهم الحقيقيين ، وحماتهم الأصليين ؟ !

وأما دعاة الشيوعية فإنهم يمنوننا بالخبز والسلام إذا نحن انضممنا إلى صفوف الشيوعية ، حتى تنتصر الشيوعية .

ونحن فى حاجة حقاً إلى الخبز والسلام . ولكننا فى حاجة معهما إلى القوة والكرامة . والشيوعية تأبى علينا أن يكون لنا وجود ذاتى ، أو أن نرفع رؤوسنا كآدميين . وهاهى ذى تقدم لنا المثل فى موقفها من ربيبتها الأولى يوغسلافيا ، حينما همت أن يكون لها فى ذاتها وجود .

والشيوعية قد تكون الطريق الوحيد فى أوربا المسيحية لتحقيق عدالة اجتماعية مادية ؛ ولكنها ليست الطريق الوحيد فى بلادنا حيث نملك وسائل أخرى لتحقيق عدالة اجتماعية أشمل وأكرم من عدالة الشيوعية المادية ، لا تسلبنا وجودنا الذاتى ، ولا تقاوم رغبتنا الطبيعية فى الكرامة . وهى عندنا أكرم وأولى .

إن طريق الخلاص هو أن تبرز إلى الوجود من أرض المعركة المنتظرة كتلة ثالثة تقول لهؤلاء ولهؤلاء : لا ! إننا لن نسمح لكم بأن تديروا المعركة على أشلائنا وحطامنا . إننا لن ندع مواردنا تخدم مطامعكم ، ولن ندع

أجسادنا تطهر حقول ألغامكم ؛ ولن نسلمكم رقابنا كالخراف والجداء .

إن هذا وحده هو الذى يعيد إلى الأدمغة المحمومة شيئاً من الهدوء ؛ وإلى الخطوات المجنونة شيئاً من الاتزان . ثم يشعر هؤلاء وهؤلاء أن فى هذه الرقعة الفسيحة الضخمة الهامة ناساً ، يحسب لهم حساب ، لا كميات مهملة ، ولا ماشية وأذناب !

وإن الذين استعمرت دعايات الكتلتين أرواحهم ليقولون : إن هذا مستحيل ما إليه من سبيل . فنحن لا نملك القوة التى نقف بها حاجزاً بين الكتلتين ؛ وستدوسنا الأقدام من هنا أو من هناك ، لا يغنى عنا أن نعلن الحياد ، أو أن ننضم إلى هذا أو ذاك .

وأنا أدرك كيف تستعمر الدعاية الأرواح والأذهان ؛ ولكنى لا أدرك كيف يهون الناس على أنفسهم إلى هذا الحد الزرى ، وكيف لا يخجلون أن يصبحوا بإرادتهم عبيداً وأشياء !

إن جيشاً ما لا يأمن أن يدير المعركة فى أرض معادية ، يتربص به أهلها الدّوائر ؛ ويتلفون ذخيرته ومؤنه ؛ ويقطعون خطوطه ومواصلاته ؛ ويتجسسون عليه للعدو ؛ ويحرمونه الهدوء والراحة ، سواء سالمهم فتركهم إلى ما هم فيه ، أو تولى الحملة عليهم ، ليواجه الثورة الداخلية بينما هو يواجه الأعداء فى الميدان .

ولقد هُزم الجيش الألمانى الظافر مرتين بسبب الثورات والانتقاضات الداخلية ، قبل أن يهزم فى ميادين القتال . وما من جيش يواجه عداء الشعوب وهو آمن فى قديم الحروب أو حديثها . وما يؤمن بذلك إلا المستغفلون الأذلاء !

إن هذه الشعوب التي تعد مئات الملايين والتي تتحكم مواقعها الاستراتيجية في نتائج أية حرب عالمية ، وتتحكم مواردها الطبيعية في النصر والهزيمة .. إن هذه الشعوب لا تعجز عن شيء حين تريد ، وكل قول غير هذا هراء !

كلمة الإسـلام

ذلك ماينطق به الواقع ، وما تؤدى إليه النظرة العملية للأوضاع والأشياء . فأين كلمة الإسلام فى الموقف ، من واقع الأوضاع والأشياء ؟

١ — إن هذا الإسلام بمبادئه الكلية عن الحياة ، و بفكرته العامة عن السلام .. يلعن هذه الحروب التي تخوضها البشرية فى هذه الأيام ، ويلعن الأسباب التي تدفع بها إلى الوجود ، ويلعن الداعين إليها والخائضين فيها .. إنها حرب ملعونة الدوافع ، ملعونة الوقائع ، ملعونة النتائج ، لأنها كلها حرب على كلمة الله فى الأرض ، وحرب على المبادىء العليا التي أراد .

ومن ثمَّ فالإسلام يحرّم علينا أن ننضمَّ إلى قوى الطاغوت فى الأرض ، وأن نعاون على الإثم والعدوان : « الذين آمنوا يُقاتِلون فى سَبيل الله والذين كَفروا يقاتِلونَ فى سبيل الطاغوت[1] » وما من شك أن بواعث هذه الحرب وأهدافها ليست فى شيء من كلمة الله ، وليست بحال من الأحوال فى سبيل الله .

٢ — و إن هذا الإسلام ليحرّم علينا أن نمدَّ أيدينا إلى الذين يؤذون المسلمين ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويظاهرون على إخراجهم : « إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُم وَظَاهَرُوا عَلَى إخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ[2] » . ولقد اشتركت إنجلترا وأمريكا ومعهما روسيا فى إخراجنا

---

(١) النساء ٧٦ (٢) الممتحنة ٩

من ديارنا بفلسطين . وكل دار للمسلمين فى الأرض دارنا . ولقد اشتركت فرنسا فى إيذائنا ومقاتلتنا فى الشمال الإفريقى كله وما تزال . ولقد قاتلونا جميعاً فى الدين وما يزالون ..

ومن ثم فكل معاهدة وكل تعاون مع واحدة أو أكثر من هذه الدول الأربع يحرمها الإسلام تحريماً ؛ ويعد الدولة التى تعقدها خارجة على نص إسلامى صريح ؛ فلا طاعة لهذه الدولة على رعاياها فى هذا المنكر ؛ بل على الأمة أن ترد الدولة عن المنكر بكلّ وسيلة و بكل طريق .

٣ — وإنّ هذا الإسلام ليحتم علينا أن ندفع عن البشريّة الظلم ، وأن نبدأ بأنفسنا فى دفع هذا الظلم عنا . وليس ظلم على وجه الأرض أشنع من الاستعمار . وهو يتمثل بالقياس إلى الوطن الإسلامى الآن فى ثلاث دول ظالمة عادية : إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .

ومن ثم فالإسلام يدعونا لأن نجاهد هذه الدول فى كل ميدان ؛ وأن نمتشق الحسام فى وجهها فى أول فرصة تسنح ؛ وأن نعد أنفسنا فى حالة حرب معها حتى تكفّ عن هذا العدوان : « وَقَاتِلوا فى سبيل اللهِ الذينَ يُقَاتلونكُمْ »(١) .

٤ — وما ينطبق على الدول والحكومات فى هذا المجال ينطبق على الجماعات والأفراد . فكلّ شركة وكلّ مؤسسة مالية أو تجارية وكلّ فرد ، يتعاون مع هذه الدول أى نوع من التعاوُن .. هو خارج على الإسلام ، مخالف عن أمر الله ، خارج على الأمة المسلمة ، مؤذ للمسلمين فى كل مكان .

---

(١) البقرة ١٩٠

وهؤلاء المقاولون الذين يوردون الأطعمة أو المهمات لجيوش هذه الدول فى أى مكان ؛ وهؤلاء العمال الذين يعملون لهم فى المعسكرات ، أو يقومون لهم بالشحن فى الموانىء وسواها ؛ وهؤلاء المشايخ المحترفون الذين تستخدمهم شركات الاستعمار لإنقاذها من الورطات . . . إنما يخونون الله ورسوله ويخونون المسلمين ويختانون أنفسهم ، ويعصون الله ورسوله كلما امتدَّت أيديهم بلقمة أو خدمة أو معونة أو فتوى !

إن الإسلام يحتم على كل فرد وكل هيئة وكل حكومة وكل دولة فى كل بلد إسلامى أن يجاهد هذه القوى الباغية ، وأن يكافحها ، وأن يوجه إليها الطعنة التى يستطيعها بالطريق الذى يستطيعه . فنحن فى حالة حرب دائمة معها حتى تكف عن العدوان علينا ، وتكف عن البغى فى الأرض كافة .

هذه هى كلمة الإسلام صريحة واضحة ، عالية مدوية تفتح لنا طريق الخلاص ، وترسم للبشرية كلها طريق السلام . السلام الكامل الشامل المبرأ من البغى والفساد والعدوان .

فأما كيف تتحقق كلمة الإسلام هذه فى واقع الحياة ؟ فالجواب أنها لا تستطيع فى الظروف العالمية الراهنة أن تتحقق إلا أن تخطو الأمة الإسلامية خطوتين متلازمتين :

الخطوة الأولى : هى الرجوع إلى حكم الإسلام فى داخل كل دولة من دويلاتها ودولاتها القائمة . واستمداد القوانين والتشريعات من الشريعة الإسلامية . وتنفيذ المبادىء الخلقية والاقتصادية والاجتماعية المستمدة من هذه الشريعة . وصياغة مناهج تعليمها وتربيتها و برامجها فى ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة .

والخطوة الثانية : هى تكتل هذه الدويلات والدول تحت الراية الإسلامية تكتلها فى ميدان السياسة الدولية ، وفى المجال الاقتصادى ، وفى المجال الحربى سواء . تكتلها على أساس : أنها أولا : تطلب الاستقلال والحرية كاملين لها ولأهلها جميعا ؛ وأنها ستكون حربا على كل معتد على هذا الاستقلال . وأنها ثانيا : تقف ضد كل اعتداء وكل استعمار من أى نوع على ظهر هذه الأرض جميعا .)

وهذه الكتلة المتجانسة هى التى تملك أن تحمل راية جديدة ، تمثل فكرة إنسانية جديدة ؛ وتلوح بها للبشرية الضالة المعذبة الشقية المنكودة .

هذه الكتلة المتصلة الحدود من شواطىء الأطلنطى إلى شواطىء الباسفيكى والتى تضم مراكش وتونس والجزائر وليبيا ووادى النيل وسوريا ولبنان والعراق والأردن والجزيرة العربية واليمن ، وتركيا وإيران وأفغانستان وباكستان وإندونيسيا .

هذه الكتلة التى يربى عددها على مائتين وخمسين مليوناً من السكان والتى تملك أغنى منابع البترول والمواد الخامة ؛ والتى تتحكم بمواقعها الاستراتيجية فى مواصلات العالم .

هذه الكتلة تملك أن يكون لها وزن ، حتى ولو كانت مجردة من السلاح ؛ وتملك أن تحمل كل كتلة من الكتلتين المتنازعتين تفكر مرتين قبل الإقدام على حرب ، تجتاح فيها هذه المناطق الشاسعة ، التى تقوم حاجزاً بين الكتلتين لا تلتقيان إلا باجتياحه ؛ وتفكر مرات قبل أن تظل مصرة على سياستها الاستعمارية الطاغية الباغية فى هذه الأرض المنكوبة بلعنة الاستعمار .

هذه الكتلة تملك هذا كله إذا وصلت إلى درجة اليقظة فيها إلى الحد الذى تقف به فى وجه الدعايات المزيفة ، التى يقوم بها دعاة كل من الكتلتين فيها . إذا هى عرفت كيف تجبر حكامها والمستغلين فيها على انتهاج سياسة إسلامية خالصة . إذا هى نظمت اقتصادياتها و إمكانياتها وخلصتها من الاستعمار الاقتصادى الذى يمكن له فيها حكامها ، وأصحاب رؤوس الأموال المستغلين ، الذين لا يهمهم وطن ولا وقومية ولا دين .

(وأنا أكتب هذا للشعوب لا للحكومات) أكتبه للجماهير لا للمستغلين وأنا مؤمن بالشعوب والجماهير فى تلك الرقعة العريضة من الأرض . وأيا ما كانت عوامل الضعف والفرقة ، وعوامل الضغط والكبت ، فإن واجب الدعاة ألا يفقدوا إيمانهم بالشعوب ؛ فالشعوب تملك حين تريد . تملك أن تسبب المتاعب للأقوياء ولحلفائهم مل أهل البلاد . تملك أن تكلف هؤلاء وهؤلاء عنتا دائما لا يأمنون معه الاندفاع ، ولا يحمون معه ظهورهم من الاضطراب والانتقاض .

ولقد آن للشعوب أن تضع حدا لذلك العبث الآثم الذى يزاوله حكامها والمستغلون فيها ؛ وأن تقرر مصائرها بأيديها ، وتقطع كل يد تعبث بهذه المصائر لغاية خاصة لا تعنى هذه الشعوب . .

لقد ضاعت فلسطين على مذبح المنافسات بين عدة بيوت حاكمة ، لا لأن قوى الأمة العربية — أيا كانت ضعيفة — عجزت عن الوقوف أمام حفنة من اليهود . مهما جاءتهم النجدة من الكتلة الشيوعية والكتلة الرأسمالية . ولو

كان فى مجموعة الشعب العربى من الحيوية إذ ذاك ما تحطم به من أطماع الطامعين وتضرب على أيديهم العابثة ما وقعت الـكارثة .

وما وقعت الـكارثة إلا لأن الرايات المتفرقة . رايات القوميات الهزيلة قد جعلت لأطماع الدويلات و بيوتها الحا كمة المقام الأول ، والكلمة الغالبة .

إن العودة إلى راية الإسلام الواحدة هى الطريق الوحيد الباقى . إن هذه الراية اليوم هى شارة الخلاص . و إن كلمة الإسلام لهى الـكلمة الأخيرة التى يتنادى بها المسلمون للنجاة . بل تتنادى بها البشرية للأمن والحياة .

الدين والسياسة

و بعد . فلقد كنت أعلم أن بعض الببغاوات الذين يسمون أنفسهم ، أو يسميهم الناس ، بالمثقفين ! سيقولون : وفيم هذا العناء كله ؟ وما بالنا نرجع فى تحديد مواقفنا السياسية ، إلى نصوص قد مضى عليها من الزمن أربعة عشر قرناً ؟ وما بالنا لا ننظر فى ملابساتنا الحاضرة ، ومصالحنا الحاضرة ، ثم نختط الخطة ونختار الطريق ؟

وللشباب البرىء الذى ينخدع بتلك الببغاوات كتبت هـذا الفصل الأخير . على النحو الذى تقدم . ليشهدوا أن كلمة الإسلام فى موقفنا الحاضر هى الـكلمة التى تمليها أية دراسة مستنيرة لواقعنا وواقع العالم . وأن راية الإسلام هى الراية الوحيدة التى تملك أن تجمعنا من فرقة ، وأن تـكثرنا من قلة ، وأن تعزنا من ذل ، وأن تمـكن لنا فى الأرض ، وأن تهيىء لنا أمرنا رشدا .

وهذه شهادة من الواقع لهذا الدين ولهذه العقيدة . شهادة بأن هذا الدين عميق فى كيان الحياة ، أصيل فى نظامها ومناهجها ؛ وبأن هذه العقيدة تملك أن تقدّم لنا حلولا عملية واقعية لمشكلاتنا جميعا حين نستهديها هذه الحلول .

فلا يبقى إذن إلا ذلك النعيق الببغاوى التافه بإبعاد الدين عن السياسة ، وفصل السياسة عن الدين . . لماذا ؟ لمجرد أن أوربا تفعل هذا !

ولست أعلم أن هذا كلام يستحق الاحترام ، ما دام لايقوم إلا على هذا الأساس ! أى ما دام لا يقوم على مناقشة موضوعية لمبادىء الإسلام ونظمه فى كل حقل من حقول الحياة ، ولحاجات العصر ومطالب البيئة ، ومقتضيات الظروف . فهذه المناقشة الموضوعية وحدها هى التى تثبت : إن كان هذا الدين يلبى حاجات الإنسانية وحاجاتنا مع حاجات الإنسانية أو لا يلبيها . وهى التى تبين : إن كانت نظم الإسلام ومبادئه أهدى وأقوم وأشمل وأفسح مجالا للتطبيق ، أم أى نظام آخر من النظم التى عرفتها البشرية حتى هذا التاريخ !

أما استبعاد الإسلام من مجال الحياة لمجرد أن أوروبا استبعدت المسيحية ، أو أن الهند استبعدت الهندوكية ! فهو تقليد قردة ونعيق ببغاوات ، لايستحق الاحترام ، ولا يستأهل الالتفات !

إن طبيعة الإسلام غير طبيعة المسيحية أو الهندوكية . و إن تاريخ الإسلام غير تاريخ المسيحية والهندوكية . و إن واقع العالم الإسلامى غير واقع أوربا أو الهند تاريخياً وحالياً على السواء .

إن العقيدة الإسلامية لا يمكن عزلها عن واقع الحياة العملية فى أى حقل

من حقولها . فهى بطبيعتها تعتمد فى وجودها الذاتى على تحققها فى واقع الحياة العملى . . والأمثلة على ذلك كثيرة :

إن رد الحكم إلى الإسلام ، وقيام نظمه وقوانينه على شريعة الإسلام مسألة لايمكن فصلها عن العقيدة ، لأنها جزء من هذه العقيدة ، لا تتم تمامها إلا به ، فوجودها الذاتى معتمد على تحققه : « ومَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئك هم الكافرون » فالدولة التى لا تحكم بما أنزل كافرة قطعاً بحكم هذا النص الذى لايقبل التأويل . والمسلم لا يجوز له — إلا مضطراً فى حالة العجز المطلق عن التغيير — أن يخضع لدولة كافرة . . ومن هذا يبدو أن محاولة الفرد المسلم إقامة حكم إسلامى هى محاولة لتحقيق ذات العقيدة الإسلامية . وليست شيئاً آخر غير صميم العقيدة .. وفى هذا تختلف العقيدة الإسلامية اختلافا أساسياً مع العقيدة المسيحية أو العقيدة الهندوكية .

وإقامة حكم إسلامى معناها تحكيم الشريعة الإسلامية فى نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية — على نحو من الأسس التى استعرضناها فى ثنايا هذا الكتاب — وحينئذ تصبح محاولة الفرد المسلم تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وإقامتها على هذه الأسس الخاصة ، محاولة لتحقيق عقيدته الدينية ، وليست عنصراً آخر منفصلا عن ذات العقيدة ؛ وسكوته عن هذه المحاولة لايعنى أن عقيدته قد وجدت وكملت ، وأنه إنما يسكت عن شىء خارج عنها ؛ إنما يعنى أن عقيدته الدينية ذاتها لم توجد أو لم تكمل .. فى حين أن اتجاها كهذا لاوجود له فى المسيحية أو الهندوكية . لأن النظم الاجتماعية أو الاقتصادية متروكة للدولة ، والعقيدة الدينية تكمل بمجرد قيام الفرد بالشعائر التعبدية .

وللإسلام كما تبينا فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة مبادئ معينة فى المعاملات الدولية ؛ وفى سلوك الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى ؛ وفى تبعات الأمة المسلمة فى المجال الإنسانى . والخلاف عن هذه المبادىء المعينة معناه الشرود عن صميم العقيدة . معناه أن هذه العقيدة لم يتحقق وجودها الذاتى ، أو لم تكمل فى ضمير المؤمنين بها . على حين أن المسيحى أو الهندوكى يملك أن يكون مسيحياً أو هندوكياً كامل العقيدة . وهو يدع هذه الشؤون كلها لرجال السياسة ، الذين قد لا يعرفون عن الدين حرفاً واحداً !

وهكذا يبدو أن طبيعة الإسلام ذاتها تختلف فى صميمها عن طبيعة المسيحية أو الهندوكية . وأن أوربا أو الهند تملك أن تفصل الدين عن السياسة ، ثم تبقى متدينة . أما فى العالم الإسلامى فالأمر مختلف جداً . إنه إما عقيدة أو لا عقيدة . إما عقيدة فهو إذن حكم إسلامى ينفذ شرائع الإسلام ومبادئه فى السلوك الشخصى وفى الروابط العائلية ، وفى العلاقات الاجتماعية ، وفى النظم الاقتصادية ، وفى النشاط الدولى .. وإما لا عقيدة فهو إذن حكم يستمد شرائعه ونظمه فى كل حقل من حقول الحياة أو فى بعضها من مصادر أخرى . ولا يمكن فى هذه الحالة أن يقال : إن هؤلاء الذين يصنعون هذا : مسلمون يدينون بالإسلام عقيدة !

فالمسألة التى يجب أن تناقش إذن هى : هل تملك العقيدة الإسلامية والمبادىء العامة التى تتضمنها ، والنظم والشرائع المنبثقة منها .. هل تملك أن تلبى حاجاتنا الحاضرة ، وحاجات البشرية كلها لو لجأت إليها ؟

والجواب من غير تردد ولا تلعثم : أن نعم ! والدراسة الموضوعية هى وحدها المرجع والحكم .

وهانحن أولاء قد شهدنا فى فصول هذا الكتاب المتقدمة أن النظم المنبثقة من العقيدة الإسلامية ، تتناول حياة الفرد ، وحياة البيت ، وحياة المجتمع ، وحياة الإنسانية ، فى أوسع نطاق ، وتضم جوانحها على أرقى وأفسح حاجات البشرية المتجددة إلى يومنا هذا .

وعلى هذه الأسس تمكن إقامة حياة بشرية عصرية متجددة . أما تفصيلات النظم والتشريعات والقوانين التى تستمد من هذه الأسس الكلية . فهو عمل هيئات ولجان متخصصة فى كل حقل .. وهذا ما أدعو إليه المتخصصين فى العالم الإسلامى كله . كل فى دائرة اختصاصه[1] .

والله الهادى ومنه التوفيق .

---

(١) فى كتاب « نحو مجتمع إسلامى » محاولة للقيام بدراسة وافية لمقومات المجتمع الإسلامى ودستوره ، كما يمكن أن تكون فى القرن العشرين .

فهرس الموضوعات

صفحة

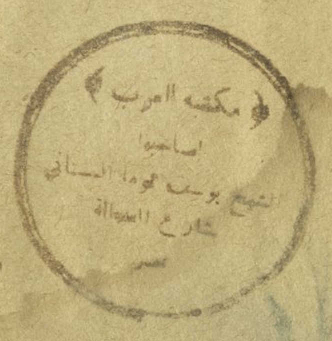
كتب للمؤلف

١ — السلام العالمى والإسلام	:	نشر مكتبة وهبة . .
٢ — العدالة الاجتماعية فى الإسلام	:	« لجنة النشر للجامعيين
٣ — معركة الإسلام والرأسمالية	:	« دار الكتاب العربى .
٤ — التصوير الفنى فى القرآن	:	« دار المعارف .
٥ — مشاهد القيامة فى القرآن	:	« دار المعارف . .
٦ — النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	:	« دار الفكر العربى .
٧ — كتب وشخصيات . .	:	« دار الرسالة . .
٨ — طفل من القرية . .	:	« لجنة النشر للجامعيين
٩ — أشواك . . .	:	« سعد مصر . .
١٠ — المدينة المسحورة . .	:	« دار المعارف . .
١١ — الأطياف الأربعة (بالاشتراك مع إخوته)		« لجنة النشر للجامعيين
١٢ — الشاطىء المجهول : (شعر)		نفد .
١٣ — مهمة الشاعر فى الحياة		نفد .
١٤ — نقد كتاب مستقبل الثقافة		نفد .

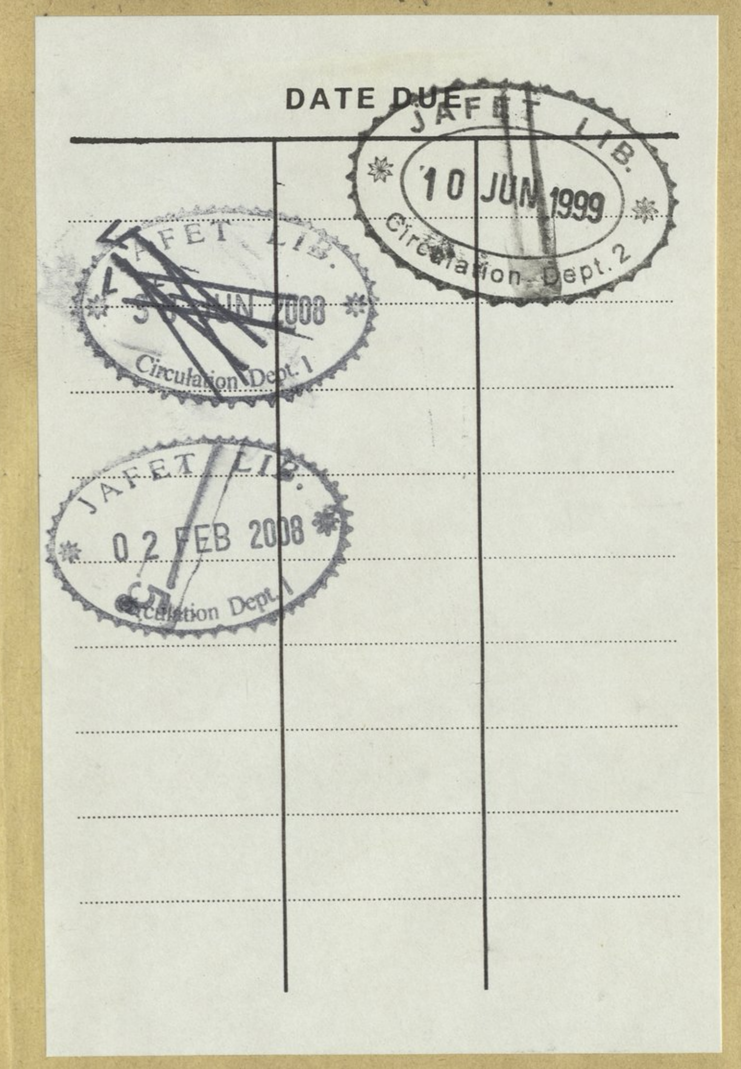
الكتب التالية

١ — نحو مجتمع إسلامى   ٢ — أمريكا التى رأيت

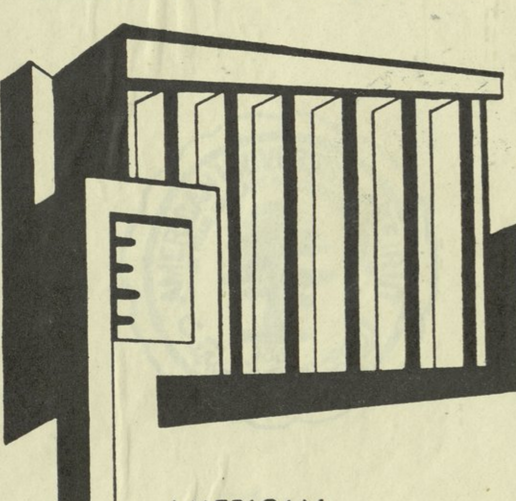
٣ — مع الخالدين   ٤ — حلم الفجر (شعر)



القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥١


DATE DUE
JAFET LIB.
10 JUN 1999
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
Circulation Dept. 1
JAFET LIB.
02 FEB 2008
Circulation Dept. 1


297.617:K97sA:c.1
قطب ،سيد
السلام العالمي والاسلام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010568


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

